سُس نفسك

فصول مهمّة في سياسة الذّنب

بقلم :

أحمد بن صالح الزهراني

oooooooooooooooooooooooooooooo

ليس الهدف من هذه الرّسالة تسهيل الذّنب على صاحبه

إنّما الهدف منها إعانة المسلم على تحقيق التّوازن المطلوب في التّعامل مع نفسه !

ooooooooooooooooooooooooooooooo

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الذّنب عقبةٌ كؤود ، تصدّ المؤمن عن البناء ، بناء نفسه وبناء أمّته .

الذّنب عائقٌ خطير يعوق المؤمن في طريقه إلى الله، وكثيرة هي العراقيل في طريق الحق ، وهي من ضمن الابتلاء الإلهي لبني البشر .

الذّنب هو السّلاح المصلت الّذي سلّه إبليس على ابن آدم ، وهو العدوّ اللّعين الّذين أقسم بعزّة الله ليغوينّ بني آدم ، حسداً من عنده لهم على ما خصّهم الله به من التّشريف والكرامة .

وإبليس لعنه الله ليس بالعدوّ السّهل ، لأنّه يرتكز على معطيات تعينه في مهمّة الإغواء الّتي تحمّلها ، ومن تلك المعطيات النّفس الأمّارة بالسّوء ، وميل الغرائز

oooooooooooooooooooooooooooooo

لصفّه ، وما حفّ الله به النّار من الشّهوات والجنّة من المكاره ، وأعوانه من شياطين الإنس .

ومن هذا المنطلق وجب على المؤمن أن يستعين بالله أوّلاً ، فإنّه بالاستعانة به يستحيل كيد الشّيطان بلهاً وقوّته ضعفاً وينقلب مكره وكيده عليه .

ثمّ لابدّ للمؤمن أن يعرف نفسه ويعرف عدوّه وأساليبه في المكر والكيد .

وليعلم أنّ من داخل نفسه من هو عون لعدوّه ، وإنّ الرّاعي الحاذق إذا عرف أنّ من رعيّته من هو عونٌ لعدوّه استخدم السّياسة حتّى لا يُغالب من الدّاخل والخارج فيكون هو الخاسر .

فلابدّ للمؤمن إذاً أن يمثّل نفسه كقبطان سفينة في حال مواجهة مع عدوّ متربّصٍ به : هو إبليس اللّعين ، ورعيّته فيهم من هو ضعيف سريع الانقلاب وهي نفسه

الأمّارة بالسّوء ، فعليه باستخدام المواجهة والقوّة مع عدوّه ، والسّياسة مع رعيّته ، حتّى يجوز بسفينته بحر الظّلمة ويصل بها إلى برّ الأمان والنّور .

ولعلّ الّذي أحبّ لفت النّظر إليه ، أنّ أهمّ من يُخاطب بهذا الكتاب هو المؤمن العامل والصّالح التّقي وطالب العلم الجاد : **فهل يعصي هؤلاء ؟**

الجواب : نعم ، وهل أوقد جذوة البكاء والخوف في قلوبهم إلاّ معاصيهم وإن كانت قليلة ؟!.

فإن قيل : من أين لك هذا وهو رجمٌ بالغيب ؟

قلت : أمّا الزّعم بأنّ بشراً مهما كان قدره في العلم والعبادة لا تقع منه المعصية ، فهو مخالفٌ لقواعد الشّرع في نفي العصمة عن غير الأنبياء .

وأمّا تعميم ذلك على الصّالحين فهو مقتضى الدّليل الثّابت عن النّبيّ ε ومنه قوله :

oooooooooooooooooooooooooooooo

(ما من مؤمن إلاّ وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة حتّى يلقى الله ، إنّ المؤمن خُلق مفتّناً توّاباً)[1].

وقوله :

(كلّ بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التّوّابون) [2]

.

لكن هذا بالطّبع لا يسوّغ اتّهام شخص بعينه بذنب معيّن ، وإنّما المراد أن لا يعتقد مؤمنٌ أو عالم أنّ الكلام في الذّنوب وآثارها وكيفيّة التّخلّص منها أمرٌ يخصّ غيره من النّاس .

أوّلاً : لأنّه بشر ، وكلّ بشر معرّضٌ للخطأ والزّلل.

---

(1) صحّحه الألباني رحمه الله تعالى في سلسلة الأحاديث الصّحيحة المجلّد السّادس ح.

(2) أخرجه أحمد 2637 والتّرمذي في صفة القيامة ح 2499وابن ماجة في الزهد ح 425وحسّنه الألباني في صحيح الجامع برقم 4515 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وثانياً : أنّه أولى بذلك من غيره ، **لماذا ؟**

لأنّ الواحد من عامّة النّاس إذا وقع في ذنب فإنّما هو ظلمة على ظلمة ، ولا خاسر غيره .

وأمّا طالب العلم والعالم والعابد فإنّ معصيته ذات أثر بالغ ، فإنّ العابد مثل المرآة يؤثّر فيها أيّ خدش ، أضف إلى ذلك أنّ الذّنب له أثر على قلبه فيثبّطه عن العبادة ، وقد يكون الذّنب مدخل الشّيطان إلى قلب العابد فيدخل القنوط إلى قلبه فيهلك .

وكذلك أهل العلم، فإذا ارتكس العالم أو طالب علم بسبب ذنب أصابه ولم يحسن معاملة نفسه فيه ، فكم تكون خسارته ، وكم تكون خسارة الأمّة إذا فقدت عالماً أو طالب علم أو عابداً واعظاً بسبب سوء معاملة نفسه عند وقوعها في ذنب أو معصية كبيرة كانت أو صغيرة .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ومن هنا تعرف أنّ العالم والعابد والصّالح التّقيّ والواعظ هم أكثر النّاس عرضة لغزو الشّيطان بالذّنب لأنّ للذّنب فيهم من الأثر أضعاف ماله في غيرهم ، وكسبه في تهميش دور العالم والعابد ، أضعاف كسبه في أن يضيف معصيةً إلى سجلّ المعاصي لعبد من عامّة النّاس .

ولما سُئل ابن عبّاس عن دعوى اليهود أنّها لا توسوس في صلاتها أجاب : (وما يفعل الشّيطان بالبيت الخراب) .

وإذا تقرّر لنا هذا عرفنا سبب ما يطرؤ على العاملين في حقل الدّعوة من الضّعف والفتور الّذي غالباً ما يكون بسبب عدم الفهم الصّحيح لمقاصد الشّريعة .

كما ندرك أنّ الكمال وإن كان أمراً حسناً فهو إلى الاستحالة أقرب ، وأنّ الكلام في الذّنوب والسّلامة منها

يخضع مثله مثل غيره لقواعد الفقه الصّحيح في درء المفاسد بالمصالح ، ودرء بعض المفاسد ببعض .

وأنّ السّعي إلى الكمال وإن كان محموداً ، لكنّه مستحيل الغاية ، وأنّه لا يوجد يوم القيامة ميزانٌ لا يوضع في كفّة سيّئاته شيء ، حاشا ميزان الأنبياء .

وإنّما المسألة مسألة اجتهاد في سبيل نيل رضا الله تعالى ، وحسن النّيّة والقصد ثمّ بذل الجهد المتاح في رجحان الخير على الشّر والحسنة على السّيّئة وأن تخرج من هذه الدّنيا بأكبر قدر ممكن من الحسنات وبأقلّ قدر ممكن من السّيّئات .

وأمّا أن يكون هدف المؤمن أن يصل إلى حدّ العصمة من الذّنب أوّ السّلامة منه فهذا في الحقيقة مفهوم غريب عن الحنيفيّة المحمّديّة ، بل هو من رواسب النّصرانيّة الّتي تسرّبت إلينا عن طريق المتأثّرين بها من ضلاّل الصّوفيّة والمحسوبين عليها .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ولا نطيل في المقدّمة ، بل سندخل في طرح هذه المسألة الّتي أرجو من الله تعالى أن تكون سبباً لفهم هذا الجانب الخطير من السنّة ، حماية لكلّ متديّن وطالب علم من أن تنطلي عليه أساليب الشّيطان ومكره ، اللّهمّ أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن لا تجعل فيما أكتب حجّة عليّ وأن تغفرلي مغفرة من عندك تسعني ووالديّ وأهل بيتي وذرّيّتي إنّك سميع مجيب .

وكتب

أحمد بن صالح الزّهراني

1 / 7 / 1420هـ

ص . ب : 106963 جدّة 21341

e-mail: azahrany@yahoo.com

oooooooooooooooooooooooooooooo

مع العدوّ : جولة أولى

عادة ما يبدأ الشّيطان مع ابن آدم بتحريضه على الرّفض والعناد للأمر ، سواء كان هذا الأمر هو دعوة التّوحيد ، أو كان أمراً تشريعيّاً مبنيّاً على التّوحيد ، ولا شكّ أنّ رفض الأمر الثّابت الصّريح عن الله ورسوله ε كفرٌ أكبر يخرج صاحبه من الملّة أو يكاد .

فالشّيطان أوّلاً يغري الإنسان برفض الدّعوة والإعراض عنها ، وهو في هذا يستغلّ عدداً من المحفّزات الموجودة أصلاً في البشر ، ومنها :

. **التّعالي** (الإعجاب بالنّفس) :

والعجب مذموم في كتاب الله وسنّة رسوله ε ، قال تعالى :

oooooooooooooooooooooooooooooo

{ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم } [التّوبة : 25] .

وقال تعالى:

{ قل هل ننبّؤكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً } [الكهف : 104].

وقال ε :

(**ثلاث مهلكات : شحٌّ مطاع وهوى متّبع وإعجاب المرء بنفسه**) [1].

وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنتين : القنوط والعجب .

---

(1) حسّنه الألباني في الصّحيحة برقم 1802 عن ابن عمر بلفظ أطول.

ooooooooooooooooooooooooooooooo

والعجب آفةٌ خطيرة إذ هو مدخل الكِبر إلى النّفس ، وهو داعٍ إلى نسيان الذّنوب ، فبعضها لا يذكرها وبعضها لا يستغفر منها لاستصغاره إيّاها ، وأمّا أعماله فيستعظمها ويدلّ بها ويحتقرها من غيره ، ناسياً نعمة الله عليه فيها .

والمعجب يغترّ بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله ويظنّ أنّه عند الله بمكان .

وإعجاب المرء بنفسه يمنعه من السّؤال والاستشارة والاستفادة من غيره ، فيستبدّ برأيه ويستنكف عن السّؤال، وربّما يعجب برأي خطأ خطر له فيفرح بكونه من خاطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصرّ عليه ، ولا يسمع وعْظ واعظ ولا نصْح ناصح .

ومن أخطر نتائج العجب أنّه يمنع من الكسب والاجتهاد لظنّ المعجب بنفسه الكمال .

oooooooooooooooooooooooooooooo

والعجب يكون بوصف كمالٍ لا محالة ،كالعلم والعمل والمال ، فإذا كان صاحب النّعمة معتقداً أنّها من الله تعالى خائفاً على زوالها لم يكن معجباً ، وإنّما المعجب أن يكون فرحاً بها من حيث هي من كسبه وغير خائف على زوالها .

وبذا تعرف أنّ العجب شيء والثّقة بالنّفس شيءٌ آخر ، فإذا ادّعى شخصٌ لنفسه كمالاً من الكمالات ناسباً إيّاها لمحض النّعمة والفضل الربّاني ، خائفاً من زوالها عنه فذلك ليس بمعجب بنفسه مذموم .

وإنّما يتحدّث المؤمن بكمالات نفسه إذا احتاج إلى ذلك في موضع الدّفاع عن نفسه ، كمن يُتّهم بأنّه متطفّل على العلم وأنّه جاهل فلا مانع أن يصف نفسه بالعلم إن كان ذلك حقّاً ويدلّل على ذلك ، على أن ينسب الفضل فيما علم إلى ربّه عزّوجل ويسأله بقاءه ،

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وكما ذكّر عثمانٌ رضي الله عنه بأعماله يوم أنكرها الجاحدون[1].

وإنّما يستغلّ الشّيطان خسيسة العجب في النّفس من حيث أنّ إعجاب المرء بنفسه مانع له كما قلنا من الاستفادة والسّؤال .

كما أنّه دافع لاحتقار رأي الغير وفضل الغير إذ هو يرى نفسه فوق الجميع وغير محتاج في أيّ شيء إلى أحد من البشر .

واشدّ أنواع العجب هو ما كان ناشئاً عن العلم والفقه ، قال تعالى :

{ أفمن زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً } [فاطر :8].

---

(1) أخرجه التّرمذي في المناقب ح3699، وعلّقه البخاري في الوصايا.

ooooooooooooooooooooooooooooooo

قال ابن مسعود رضي الله عنه : الهلاك في اثنتين : القنوط والعجب .

وقال مطرّف بن عبدالله الشّخّير : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً ، أحبّ إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً .

وكان ابن مسعود يقول لأصحابه : والله الّذي لا إله غيره لو تعلمون علمي لحثيتم على رأسي التّراب ، والله لو تعلمون ذنوبي ما وطىء عقبي اثنان ، ولحثيتم التّراب على رأسي ولوددت أنّ الله غفر لي ذنباً من ذنوبي وأنّي دُعيت عبدالله بن روثة .(1)

. **احتقار الغير** (الكبر) :

وأمّا الكِبر فداءٌ أيّ داء ، ومن قبحه أنّه يمنع الهداية ، بل ويدفع صاحبه إلى العدوان والبغي .

---

(1) هذه الآثار في سير أعلام النّبلاء 1 / 195 .

والكِبر عرّفه ε بقوله : (**هو بطر الحق وغمط النّاس**)[1] فبطر الحق هو ردّه والتّعالي عليه ،وغمط النّاس احتقارهم وازدراؤهم .

وللكبر مظاهر شتّى كإسبال الإزار والاختيال في المشي وتصعير الخدّ للنّاس .

ولكنّ لبّه وحقيقته ماذكره ε : **وهو ردّ الحق والتّعالي عليه** ، فالمتكبّر يتعالى على كلّ ماجاءه من غيره حقّاً كان أو باطلاً .

والمتكبّر قد يعرف الحقّ جليّاً ثمّ يصرّ على ردّه كِبراً واحتقاراً لمن جاءه منه ، فهو لا يرى لأحدٍ من النّاس فضلاً ، فيدفعه ذلك لردّ الحقّ على من جاء به حتّى لا يكون له عليه فضل ، وكلّ ذلك من إعجابه بنفسه أصلاً وأنّه ينسب إليها من الكمالات ما ليس فيها أو

---

(1) أخرجه مسلم في الإيمان ح91 عن عبدالله بن سلام .

فيها لكنّه يبالغ ويرى ذلك من نفسه وينسى نعمة الله عليه بها .

ولهذا يحاول العدوّ تحفيز هذا المارد القابع في قاع النّفس البشريّة إذا ما ورد أمرٌ من الله تعالى ، إمّا بالكفر إن كان كافراً ، وإمّا بالفسق إن كان مولوداً على الإسلام ، فإذا قيل للفاسق صلِّ تكبّر وأبى احتقاراً لمن جاء منه الأمر بالصّلاة ، وكذلك سائر الأوامر والنّواهي الشّرعيّة ، ومن هنا جاءت خطورة الكِبر .

وهذا يفسّر الوعيد الشّديد في الكبر ، قال ε :

(لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبر)[1].

والجزاء من جنس العمل ، فلمّا كان المتكبّرون يتعاظمون في أنفسهم على الخلق ، حشرهم الله يوم

(1) صحيح مسلم ح91.

القيامة بضدّ ما نسبوا أنفسهم إليه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النّبيّ ε:

(**يُحشر المتكبّرون يوم القيامة أمثال الذّر في صور الرّجال يغشاهم الذّلّ من كلّ مكان ، يُساقون إلى سجن في جهنّم يُقال له بولس تعلوهم نار الأنيار يُسقون من طينة الخبال عصارة أهل النّار**)(1).

وكان السّلف يبينون للمتكبّر حقيقته حتّى يتواضع ، فهذا عمر بن عبدالعزيز قبل أن يلي الخلافة يمرّ بطاووس مختالاً في مشيته فرآه طاووس فلكزه في جنبه وقال له : ليست هذه مشية من في بطنه خرء .

ورأى مطرّف الشّخّير المهلّب يختال في مشيته فقال : يا عبدالله هذه مشية يبغضها الله ، فقال له المهلّب : أما

---

(1) أخرجه الترّمذي في صفة القيامة ح 2492،وأحمد ح 6639، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع برقم 8040 .

تعرفني ؟ قال بلى أعرفك : أوّلك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل الخرأة .

وقال الأحنف لمصعب لما رأى فيه بعض الكبر : عجباً لابن آدم يتكبّر وقد خرج من مجرى البول مرّتين.

وقال الحسن رضي الله عنه : عجباً لابن آدم ، يغسل الخرء بيديه كلّ يوم مرّتين ثمّ يعارض جبّار السّماوات والأرض .(1)

. **الحسد** (التّنافس) :

الغيرة والتّنافس غرائز مفطورٌ عليها ابن آدم ، لكن حين ينحرف مسارها عن وجهها الصّحيح تؤدّي إلى نتائج خطيرة .

فإنّ المنافس إذا لم يستطع أن يصل إلى ما وصل إليه غيره له حالان :

---

(1) انظر هذه الآثار في الإحياء للغزالي 4 / 136 وما بعد .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

إمّا أن يرضى بقضاء الله تعالى ويسأله من فضله .

وإمّا أن يحاول ويتمنّى زوال النّعمة عن أخيه المسلم ، وهنا يقع في الحسد المذموم ، وهو تمنّي زوال النّعمة عن الغير .

وهذا التّمنّي وإن كان بالقلب فهو ضارٌّ وقد يصل بالمحسود إلى الموت ، ثمّ قد يصل الحال بالحاسد إلى مباشرة العدوان بالجوارح ، كلّ هذا بسبب الرّفض الدّاخلي لقضاء الله تعالى وقدره ، ولهذا قال تعالى :

{ ولا تتمنّوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض }[النّساء : 32].

ومن أشدّ آفات الحسد أنّه يدفع صاحبه إلى إنكار فضل صاحب الفضل ، ومحاولة الإضرار به قدر المستطاع ، ولأنّه يرى نفسه أحقّ منه بالفضل فإنّه يردّ كلّ ما يصل إليه من المحسود حتّى لو كان دعوةً للحق

oooooooooooooooooooooooooooooo

يعرف هو صدقها ، احتقاراً له واعتراضاً على ما أوتي من الفضل .

وهذا الحسد هو الّذي دفع إبليس أن يتكبّر على أمر الله فيمتنع من السّجود حسداً لآدم على هذه المكانة ، وهو الّذي دفع اليهود والنّصارى لردّ دعوة محمّد ε لأنّهم حسدوه على هذا الفضل وأرادوا النّبيّ منهم ، قال تعالى : **{ ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم }** [البقرة :109] .

ويكفي أنّ أوّل قتل كان في الأرض سببه الحسد ، أي حسد قابيل لهابيل حتّى جرّه ذلك إلى ما ذكره الله عنه من القتل .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

. الشّح والحرص :

أمّا الشّحّ والحرص فإنّه سبب من أسباب الهلاك كما جاء في الحديث (**ثلاث مهلكات**) وذكر منهنّ (**شحٌّ مطاع**)[1]، وسبب ذلك أنّ الشّحيح الحريص للمال قلبه من المنزلة ما يفوق كلّ شيء ، وإذا تعارض قبول الحقّ مع بقاء المال أو مع زيادته فإنّه سيرفض الحقّ ، ولذلك قال تعالى :

{ ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون } [التّغابن : 16].

وتعرف خطورة الشّح إذا علمت أنّ سبب كفر كثير من العرب هو بخلهم بدفع الزّكاة ، أو قيامهم بالحقوق الماليّة الّتي يوجبها عليهم الدّين الإسلامي الحنيف على صاحبه الصّلاة والسّلام .

---

(1) تقدّم .

oooooooooooooooooooooooooooooooo

. حبّ الرّياسة :

وكذلك الشّهوة الخفيّة وهي حبّ الرّياسة ، فكثيرٌ من النّاس لهم رياسات وتصدّر في المجتمع ، ويرون أنّ قبولهم الحقّ يضع من أقدارهم ويقلّل من رياساتهم فلذلك يردّون الحق ، لأنّ الإسلام دين المساواة ، دين العدل ، الفضل فيه للتّقوى فقط لاالنسب ولا لمال ولا لمنصب .

فإذا شعر صاحب الرّياسة أنّ هذا الدّين يعطي الحقّ لمن دونه أن يجلس بجواره وأن يقتصّ منه إذا ظلمه وأنّ غيره سيكون له أمر عليه بحقّ الولاية الشّرعيّة أنِف من قبول الدّين ونفر منه ، كلّ ذلك بسبب استيلاء الشّيطان على نفسه وقياده لها بزمام الرّئاسة وحبّ التّصدّر بحقّ أو بدون حق .

وهذا عبدالله بن أبيّ رأس النّفاق ، كان أكبر دوافع رفضه الإيمان بالنّبيّ ε هو حبّ الرّياسة ، لأنّ النّبيّ ε لما

ooooooooooooooooooooooooooooooo

هاجر إلى المدينة كانت الاستعدادات على قدم وساق لتتويج ابن أبيّ ملكاً على المدينة .

وكان وجود النّبيّ ε مانعاً منها فأضمر الكفر وأبى حبّاً في التّرأّس .

oooooooooooooooooooooooooooooo

مع العدوّ : جولة ثانية

إذا عرف إبليس أنّ العبد مقبلٌ على الله ، جادٌّ في قبول الدّين والالتزام بالطّاعة لمولاه تعالى ، صادقاً في محبّته . لجأ إلى حيلة أخرى نازلة عن الأولى غير أنّها لا تقلّ عنها خطورة ، وهي أنّه يغريه بالزّيادة والغلوّ في تديّنه موهماً إيّاه أنّ هذه الزّيادة مرضيّة لله تعالى .

وهو لعنه الله يموّه على النّفس المؤمنة ويغريها بالغلوّ ويحسّنه في عينها تحت مسمّيات زائفة ، ويستغلّ كذلك بعض الثّغرات في النّفس البشريّة ، وبيانه كما يلي :

ooooooooooooooooooooooooooooooo

. محبّة الله ومحبّة رسوله ε :

كلّ المسلمين يحبّون الله تعالى ، غير أنّهم يتفاوتون في هذا الحب ، وهناك طائفة من النّاس يبلغ بهم الحبّ لله تعالى أن يتصوّروا أنّ ما يقومون به لا يفي بحقوق المحبّة ، فيحثّهم الشّيطان على الزّيادة في العبادة زيادة غير مشروعة ، وهذه الزّيادة إمّا أن تكون في عبادة مشروعة في أصلها ، أو أن تكون مُبتكرة كلّيّاً ، ويرى أصحابها أنّها سببٌ لمحبّة الله تعالى .

لكنّ الله تعالى قطع ذيل هذا الهاجس بقوله :

{ قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله } [آل عمران : 31] .

وقال ε :

ooooooooooooooooooooooooooooooo

(**من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد**)[1].

وفي رواية : (**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**) ، أي مردود .

فالمحبّة الحقيقيّة في اتّباع سنّته دون زيادة ولا نقصان ، وأمّا الزّيادة بشيء لم يأمر به فهي مردودة كما سبق.

. **الخوف من الله :**

كذلك الخوف ، سببٌ للزّيادة غير الشّرعيّة الممقوتة من الله ورسوله ε .

ويبِينُ ذلك جلياً من خلال حديث الرّهط ، الّذين جاؤوا فسألوا عن عبادة النّبيّ ε فكأنّهم تقالّوها ، وقالوا : هذا رسول الله قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر

---

(1) أخرجه البخاري كتاب الصّلح ح 2697 ومسلم في الأقضية ح1718 عن عائشة τا مرفوعاً .

، فقال بعضهم : لله عليّ أن أصوم فلا أفطر ، وقال آخر : لله عليّ أن أقوم فلا أنام وقال الآخر : لله عليّ أن لا أتزوّج النّساء ، فبلغ ذلك النّبيّ ε فغضب وصعد المنبر فقال :

(**مابال أقوامٍ قالوا كذا وكذا ولكنّي أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النّساء فمن رغب عن سنّتي فليس مني**)(1) .

هذا هو الفيصل : من رغب عن سنّته فليس منه ، ومن سنّته : أن لا يكون الخوف من الله تعالى دافعاً لتحريم ما أحلّ الله أو المبالغة في العبادة حدّاً لم يأمر به الشّرع .

. **الجهل** :

وهذا في الحقيقة هو السّبب الأكبر في وقوع أهل البدع في بدعهم ، فإنّ الواحد منهم يسمع نصّاً من

---

(1) أخرجه البخاري في النّكاح ح5063 ومسلم في النّكاح ح140.

القرآن أو السّنّة فيأخذ به هكذا دون فهم لمعناه وحقيقته وتطبيق السّلف له .

فمن يقع في بدعة المولد يستدلّ بالنّصوص الآمرة بحبّ النّبيّ ε ، والّذي ينفي الصّفات يستدلّ بقوله تعالى :

{ ليس كمثله شيء } [الشورى :11] .

ولو عرف الأوّل أنّ الصّحابة الّذين هم أكثر النّاس حبّاً له ε لم يحتفلوا قطّ بمولده ، لعرف أنّه في احتفاله هذا متزيّدٌ عليه ε مخالفٌ له .

ولو عرف الثّاني أنّ السّلف ومنهم الصّحابة أثبتوا لله الأسماء والصّفات كما وردت ، وأنّ إثباتها لا يستلزم تشبيهاً ولا تمثيلاً لعرف أنّه في إنكاره مخالفٌ له ε ، وأنّ كلا الفريقين مصدر مخالفته : الجهل بأحكام هذا الدّين وقواعده الشّرعيّة .

oooooooooooooooooooooooooooooooo

. **الهوى** :

كثيراً ما يكون الهوى والميل لرأيٍ معيّن سبباً في الوقوع في البدعة ، فإنّ المقلّدين عادةً ما يخالفون الحقّ ويرغبون في البدعة اتّباعاً لهوى أنفسهم ، وتعامياً عن الحق .

وقد ذكر الله الهوى في مواطن كثيرةٍ ، وبين أنّه سببٌ لردّ الحقّ من كثير من النّاس ، قال تعالى :

{ إن يتّبعون إلاّ الظّنّ وما تهوى الأنفس }[النّجم :23] .

وقال :

{ فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا }[النّساء : 135].

ooooooooooooooooooooooooooooooo

والهوى قد يكون بسبب الإعجاب بالنّفس أو الكِبر أو المال والرّياسة ،وربّما محبّة تقليد شخص معيّن أو مذهب معيّن .

على أنّ تلاعب الشّيطان بابن آدم من خلال هذا الحافز كثيرٌ جدّاً بل وخطير ، لأنّه ينطلق من الحبّ المحض للميل عن الحق ولذلك سمّاه الله تعالى إلهاً فقال :

{ أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم } [الجاثية :23].

oooooooooooooooooooooooooooooo

مع العدوّ : جولة ثالثة

يضع الشّيطان هذه العقبة إذا لم يستطع أن يصدّ المؤمن عن العمل فهي درجة نازلة لأنّ مصدرها الحرص والشّهوة ، أمّا ترك الأمر فمصدره الكبر والإعراض ، والله يغفر لصاحب الأوّل ما لا يغفره لصاحب الثّاني .

ومكمن الخطر في الذّنب هو ما يتركه في نفس العامل من احتقار نفسه، وسوء ظنّه بربّه أن لا يقبل عمله ، فيُصاب بالإحباط فيترك العمل ، وهذا هو اليأس من روح الله ، وهو أشدّ من الأمن من مكر الله ، حيث وصف الله به الكفّار فقط ، مع أنّ رحمة الله سبقت غضبه كما ثبت عنه ε [1].

---

(1) أخرجه البخاري في التّوحيد باب قول الله { **بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ** }.

oooooooooooooooooooooooooooooo

أضف إلى ذلك أنّ اعتياد الذّنب قد يؤدّي إلى استمراء الذّنب بل إلى استحسانه أو استحلاله ، وهو الكفر الّذي يريد إبليس إيصال العبد إليه.

والوقوع في الذّنب يختلف عن رفض الأمر وعن البدعة ، من جهتين :

الأولى : أنّ الدّافع للذّنب كما قلنا هو الحرص والشّهوة ، وهي غرائز مركوزة في الفطرة غالباً إلاّ انّ الخطأ جاء من استعمالها في غير حل .

الثّانية : أنّ صاحب الذّنب يعرف أنّه على خطأ وأنّه مذنب .

وهذا في الحقيقة نصف العلاج ، أي أن يعرف المريض أنّه مريض ونوعيّة مرضه ، وأمّا صاحب الهوى أو الكافر المعاند فإنّه يظنّ نفسه على صواب :

oooooooooooooooooooooooooooooo

{ قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً } [الكهف : 103-104].

ومن أهداف إبليس اللّعين في الذّنب : الفصل بين المؤمن وبين نفسه ، فيصوّر له نفسه عدوّةً له فيعاملها بقسوة ظنّاً منه أنّ القسوة هي الطّريق الوحيد لترويضها وتطويعها ، وهو ما فعله رهبان النّصارى وتابعهم على ذلك الصّوفيّة من فرق المسلمين .

وهذا أيضاً خطأ جسيم ، لأنّ الله تعالى خلق النّفس وركز فيها مجموعة من الغرائز الفطريّة ، فحرمانها من حقوقها نوع من الظّلم سيؤدّي في النّهاية إلى تمرّدها وخروجها خروجاً قد لا يكون بعده رجعة .

إنّ النّفس البشريّة بما أودعه الله فيها من الغرائز والفطر الّتي قد تكون متناقضة أحياناً ، هي هدف

ooooooooooooooooooooooooooooooo

إبليس في حربه مع بني البشر ، فهو يستغلّ نقاط الضّعف في نفوسنا ، ليصل من خلالها إلى أكبر ما يمكن تحقيقه من المكاسب ، والكفر هو أعلى ما يتمنّاه من ابن آدم .

وعليه فإنّ الواجب على المؤمن أن يتعلّم كيف يسوس نفسه ، وكيف يعلّمها القيام بما عليها من الحقوق ، وكيف يعطيها ما قسم الله لها من الحقوق بحيث لا ينسيها مالها ما عليها ، ولا يشغلها حظّها من غيرها عن حظّ غيرها منها .

وسياسة النّفس فنٌ فريد تفرّد به سلفنا الصّالح وأبدعوا فيه ونوّعوا ، وكلّهم فيه صادرٌ عن بحر لا تكدّره الدّلاء ، نبيّهم وقدوتهم محمّد ε .

وإذا كان كلّ ملك وراع وسائس تمرّ به أيّام محن تظهر فيها مقدرته على ضبط الأمور والموازنة بين المصالح

oooooooooooooooooooooooooooooo

والمفاسد ، فإنّ من أشدّ حالات المحن الّتي تمرّ بالمؤمن هي لحظات الوقوع في الذّنب ، لحظات الضّعف البشري ، لحظات الاستعلاء الرّبّاني الّذي أبى إلاّ أن يري النّاس ضعفهم وحاجتهم إليه ، إلى مغفرته وإلى رحمته ، إلى عين العطف والحنان منه جلّ شأنه .

في تلك اللّحظات العصيبة ، تهتزّ موازين النّفس ، وتضطرب مقاييسها ، وتختلط عليها المفاهيم [1] وتعتم الرّؤية عليها ، فتحتاج إلى رؤية ثاقبة وسائس يضع الأمور مواضعها ، ويقدّر المصالح والمفاسد ، ويزن كلّ خيار بميزان دقيق .

فليست المسألة كما قلنا ربحاً لا خسارة فيه ، بل المسألة : (**أكبر قدر من الرّبح مع أقلّ مقدار من الخسارة**) ، هكذا : تفكير بالعقل أكثر من العاطفة ،

---

(1) نتكلّم عن نفس المؤمن .

ففي هذه المواطن نحتاج إلى عقل راجح أكثر من عاطفة جيّاشة ، فإنّ العقل هو الّذي يمنع جنوح العاطفة.

وإذا كان لا بدّ للمؤمن من أن يحصّن نفسه من مكر إبليس ، فإنّ موضوع هذه الوريقات ليس هو وسائل التّحصّن ، فهذا أمر معروف وظاهر ، والقول فيه تكرار .

ولكنّنا نريد أن نخاطب أصحاب النّفوس المتمرّدة[1] الّتي تغلي بما فيها من نوازع العصيان والتّلذّذ بما يسبّب لها العطب من حيث تدري أو لا تدري .

تلك النّفوس الّتي يعاني منها أصحابها ، ولهم نوايا صدق وميل إلى الاستقامة والتّديّن ، ولكنّ إبليس يدير عليهم رحى الحرب من داخلهم ، فيعبث عبثاً خبيثاً

(1) { وما أبرّىء نفسي إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء } .

oooooooooooooooooooooooooooooo

بغرائز النّفوس ، فيعدها ويمنّيها ويغريها بحلّ قيود الطاعة والانفلات إلى باحات المعصية الواسعة .

وإذا تضاربت رغبات النّفس العنود مع توجّهات العقل الرّاجح ، حصل الاضطراب والخلخلة الّتي تصيب المؤمن بحالة عدم اتّزان وترميه في بحر الحيرة بلا مركب.

فإن كان ذا قدرة على السّياسة والمداراة لنفسه جاز محنة الذّنب بسلامة ، بل قد ينقلب همّه فرجاً وحزنه فرحاً .

وإن كان ذا حمق وتسرّع أوقع نفسه في التّهلكة وربّما كان تلف نفسه على يديه .

ولعلّي قد أطلت الرّعي حول الحمى ، وهذا أوان الولوج ، وبالله الإعانة ومنه نستمدّ الّسداد والوفاق .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

مع النّفس

هناك مجموعة من الحقائق الّتي تضبط عمليّة سياسة النّفس ، قد نحتاج بعضها دون بعض ، وقد نحتاجها كلّها ، وإنّما هذه القواعد دواء ، والبصير أعلم بداء نفسه ، وبالدّواء الّذي يعوزه .

ولا بدّ للمؤمن من أن يتذكّر دائماً أنّ المطلوب منه بذل الجهد والاستطاعة ، وأمّا السّداد فمن الله تعالى ، وقد يجتهد المؤمن فلا يُوفّق فلا يجعلن ذلك صادّاً له عن الاستمرار ، لأنّ عدم التّوفيق مصيبة يمتحن الله بها صدق المؤمن ، فإن صبر أفلح وإن تعجّل وملّ وضجر خاب وخسر .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

جنس الذّنب عظيم

لا تنظر إلى صغر المعصية ، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت .

هذه مقولة السّلف الصّالح رضي الله عنهم ، فإنّ جنس الذّنب ينطوي على معانٍ لو قصد العبد بقلبه إليها لكفر بالله العظيم .

إذ الوقوع في الذّنب مع العلم بحرمته يتضمّن الاستخفاف بالله تعالى ، وعدم الخوف منه ، والاستهزاء بآيات الله ، وعدم الحياء من الله ، وعدم التّصديق بوعده ووعيده ، وهذه المعاني كلّها تتنافى مع أصل الإيمان .

oooooooooooooooooooooooooooooooo

لكنّ الله تعالى عرف حقيقة ضعف العبد ، وأنّه إذا وقع في الذّنب مع الإقرار بحرمته فإنّما يكون ذلك للغشاوة الّتي تغطّي عينه وقلبه ، فيضعف يقينه وتحلّل الشّهوة عقله فيُصاب بسكرة الهوى فينسى اطّلاع الله عليه ، وتخفّ عن قلبه وطأة الخوف فيقع في الذّنب ، بدليل أنّه بمجرّد إقلاعه عن الذّنب وفراغه منه يحسّ بألم يعصر قلبه ، **فما هو هذا الشّعور ؟**

إنّه التّفسير الصّحيح لقوله ε : (**لايزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولايسرق السّارق حين يسرق وهو مؤمن**)[1].

---

(1) أخرجه البخاري في المظالم 2475 ، ومسلم في 57 عن أبي هريرةτ .

oooooooooooooooooooooooooooooo

قال الأئمّة : إذا عصى العبد خرج منه الإيمان حتّى يكون فوقه فإذا تاب عاوده .

فهو إذاً مثل الثّوب الّذي لا يجتمع مع لباس المعصية على عبدٍ واحد في وقتٍ واحد .

والمقصود في الحديث حقيقة الإيمان لا أصله ، لأنّ للإيمان أصلاً كما أنّ له حقيقة ومنتهى وغاية ، وهي القيام بكلّ ما أمر الله تعالى به ورسوله ε ، والانتهاء عن كلّ ما نهى الله عنه ورسوله ε .

وإذا تقرّر لنا أنّ مجرّد مخالفة أمر الله سبحانه عظيمة تبعاً لعظمة الله تعالى ، فإنّ ذلك يجب أن يكون مقياس إيمانك ، فتأمّل في حال نفسك :

إنّك ترى منها نفوراً واشمئزازاً عن الذّنب الّذي تعافه ،ولو كان من الصّغائر ، وتظنّ أنّك تركته لله ، مع أنّك تقع في كبيرة من الكبائر ليل نهار دون شعور بألم أو

حسرة ، لأنّ نفسك تهواها وتميل إليها ، وصدق شيخ الإسلام رحمه الله تعالى إذ قال : (وما أكثر ما تفعل النّفوس ما تهواه ظانّة أنّها تفعله طاعة لله)[1].

والنّبيّ ε ذكر هذا ، ففي صحيح البخاري عنه ε أنّه قال :

(إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنّه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإنّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا . قال أبو شهاب بيده فوق أنفه)[2].

هذا هو منهج التّعامل عند المؤمن وعند المنافق ، دون تمييز بين ذنب وذنب ، فالمؤمن في معصيته ناظرٌ إلى مقام ربّه ، ومع هذا النّظر يعظم كلّ ذنب ولو صغُر .

---

(1) الفتاوى 28 / 207 .

(2) أخرجه البخاري في الدّعوات ح 6308.

ooooooooooooooooooooooooooooooo

والمنافق في معصيته ينظر إلى هوى نفسه من جهة وإلى مرآة الخلق من جهة أخرى ، ومع هذا النّظر يصغر كلّ ذنب في عينه ولو كبُر .

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى : (تأمّلت وقوع المعاصي من العصاة فوجدتهم لا يقصدون العصيان وإنّما يقصدون موافقة هواهم ، فنظرت في سبب ذلك الإقدام مع العلم بالمخالفة فإذا به ملا حظتهم كرم الخالق وفضله الزّاخر ، ولو أنّهم تأمّلوا عظمته وهيبته ما انبسطت كفٌ بمخالفته ، فإنّه والله ينبغي أن يُحذر ممّن أقلّ فعله تعميم الخلق بالموت ، فليعرض المقدم على الذّنوب على نفسه الحذر ممن قال : **{ ويحذّركم الله نفسه }** وملاحظة أسباب الخوف أدنى إلى الأمن من ملاحظة أسباب

الرّجاء فالخائف آخذ بالحزم والرّاجي آخذ بحبل طمع ، وقد يخلُف الظّن)[1].

فالواجب على العبد أن يوطّن نفسه على رقابة الله ، وعظمته وأنّ أخذه أليمٌ شديد ، وأنّه يمكر بمن يمكر ويراوغ على المعصية ، دون خشية لله ولا مراقبة .

ولأنّ جنس الوقوع في الذّنوب سهلٌ على العبد فإنّ استمراءها طريق للنّكسة والرّدّة الإيمانيّة ، إذ إنّ أثر الذّنب كثيراً ما يكون خفيّاً خصوصاً إذا صغر ، أو كان من المشتبهات غير المحقّقة ، فهي كالمرض الّذي يصيب من لا يعلم به ، فما يزال به حتّى يورده الممات.

وقد صوّر النّبيّ ε هذه الذّنوب الصّغيرة أبلغ تصوير حيث قال :

---

(1) صيد الخاطر ص 193 بتصرّف يسير .

oooooooooooooooooooooooooooooooo

(**إيّاكم ومحقّرات الذّنوب فإنّهنّ يجتمعن على الرّجل حتّى يهلكنه كرجل كان بأرض فلاة فحضر صنيع القوم ، فجعل الرّجل يجيء بالعود والرّجل يجيء بالعود حتّى جمعوا من ذلك سواداً وأجّجوا ناراً فأنضجوا ما فيها**) [1] وفي لفظ : (**وإنّ محقّرات الذّنوب متى يُؤخذ بها صاحبها تهلكه**) .

---

(1) أخرجه أحمد 3808،2230وغيره وصحّحه الألباني في السّلسلة الصّحيحة برقم389 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

الذّنب عظيم ولكنّ عفو الله أعظم

وإذا كان الذّنب عظيماً فإنّ عفو الله تعالى أعظم من كلّ ذنب .

خطورة الذّنوب هذه جعلت أصحاب رسول الله ε يأتون إلى رسول الله ε المرّة بعد المرّة يسألونه عن الحيلة فيها أو عن مصيرهم معها .

حزنوا مرّة لما واقعوه من الذّنوب صغيرها وكبيرها ، حتّى الشّرك بالله تعالى ، فتولّى الله تعالى بشارتهم فقال :

{ قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرّحيم } [الزّمر : 53] .

oooooooooooooooooooooooooooooo

وهذه الآية في التّائبين ، فإنّ التّوبة تجبّ ما قبلها .

إنّ النّصوص القرآنيّة والنّبويّة الّتي جاء فيها الحديث عن سعة عفو الله بلغت الذّروة في روعة التّصوير وبهاء الصّورة وإشراق اللّفظ ، خذ مثلاً :

قال تعالى :

{ إنّ ربّك واسع المغفرة } [النّجم : 32].

مثال آخر :

{ إنّ رحمة الله قريب من المحسنين } [الأعراف : 56] .

وقال أيضاً :

{ ويعفو عن كثير } : [المائدة : 15] .

وقال :

oooooooooooooooooooooooooooooo

{ فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات } [الفرقان : 70] .

وقال ε :

(**قال الله تعالى : ياابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السّماء، ثمّ استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أنّك أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثمّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**)(1) .

وفي صحيح مسلم قوله ε:

---

(1) أخرجه التّرمذي عن أنس في الدّعوات ح 3540 وله شاهد من حديث أبي ذر رضي الله عنه أخرجه مسلم ح2687 وحديث أنس حسّنه الألباني في الصّحيحة رقم 127 .

(إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه)(1).

وشهود هذا المشهد ـ أعني سعة عفو الله ـ يحتاجه المؤمن إذا غلب على نفسه الخوف ، وخشي من الوقوع

---

(1) أخرجه مسلم في الإيمان ح190 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

في القنوط ، فهو دواء يحتاجه المؤمن في وقت أكثر من وقت آخر .

ومن جميل هذا المعنى قول بعض السالفين : (اللّهمّ إنّ ذنوبي عظيمة وإنّ قليل من عفوك أعظم منه ، فامحُ بقليل عفوك عظيم ذنوبي) .

فعفو الله تعالى أحد الأسباب العشرة الّتي يكفّر الله بها عن العبد سيّئاته وجرائمه ، ونحن إذ نؤكّد عليه فإنّ ذلك من باب تأكيد الصّفة الّتي تكرّرت في القرآن كثيراً ، لأنّ الله تعالى عفوٌّ كريم يحبّ العفو ، كما ثبت عنه ε .

وليعلم العبد أنّ الله تعالى يريد من العبد أن يخطو إليه خطوة ليجد من الله أضعافها ، وأنّ عذاب العبد على معصيته لا تزيد في ملكه شيئاً ، بل كما قال تعالى:

ooooooooooooooooooooooooooooooo

{ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم } [النّساء : 147].

فمهما صدر منك من الذّنوب فاعلم أنّ عفو الله أعظم منها ، حتّى الكفر والشّرك مع التّوبة ، لقوله :

{ قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرّحيم } [الزّمر : 39] .

وهذا يعني أن تغلق على الشّيطان أيّ باب يحاول إدخال الياس والقنوط إلى نفسك منه ، بل إذا تبت وأقبلت على الله فقد بشّرك الله تعالى بأكثر ممّا تتصوّره.

oooooooooooooooooooooooooooooooo

الذّنب مصيبة يجب الصّبر على أثرها

من المتقرّر أنّ أعظم المصائب وأجلّها مُصاب المرء في دينه .

ومصائب الدّين تتفاوت في الأثر كما تتفاوت المصائب في الدّنيا ، فالوقوع في الكفر والشّرك ليس كالوقوع في الكبيرة ، والوقوع في الكبيرة ليس كالوقوع في الصّغيرة .

ولكلّ مصيبة أثر يعظم ويصغر بحسب إيمان العبد وصفاء توحيده ويقينه بوعد الله ووعيده ، وقد تقدّم أنّ المنافق يعدّ الكبيرة صغيرة ، لأنّ قلبه ميّت لا إيمان به ولا شعور يميّز به بين الخطأ والصواب .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

كما أنّ المؤمن قد يشتدّ به شعوره بما وقع فيه من الذّنب فيسيء التّصرّف ، وقد يقع في القنوط أو يعامل نفسه ويعاقبها بما قد يكون فيه التّلف .

وإذا وقع الذّنب من العبد ثمّ استيقظ فإنّ له معه مشاهد عدّة ، وأهمّها أنّ يعلم أنّ هذا الذّنب الّذي وقع فيه مصيبةٌ قدّرها الله عليه ، فليسترجع ويتذكّر أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، ويحتسب الأجر على صبره على أثر المعصية العظيم في قلب المؤمن ، قال تعالى :

{ وبشّر الصابرين الّذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون }[البقرة : 155-157].

oooooooooooooooooooooooooooooooo

إنّ مشاعر الخوف والهمّ والحزن الّتي تصيب المؤمن إذا وقع في الذّنب . ولا يعلم مدى تأثيرها على النّفس إلاّ القلّة . هي في حدّ ذاتها مصيبة .

أضف إلى ذلك توابع الذّنب الّتي قد تصيب العبد عقوبةً له في الدّنيا قبل الآخرة ، كإقامة الحدّ عليه بقتل أو قطع أو جلد ، وكذلك افتضاح أمره وسوء السّمعة ، أو الأمراض الّتي تنتج عن بعض المعاصي ، أو التّقتير في الرّزق أو المشاكل الاجتماعيّة في الأُسرة ، وغير ذلك كثير ، فالمؤمن يعلم أنّ ذلك كلّه بسبب ذنوبه ، كما قال تعالى :

{ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيّئة فمن نفسك } [النّساء :79].

oooooooooooooooooooooooooooooooo

فإذا احتسب الأجر واسترجع ولام نفسه ونسب إليها الظّلم كان ذلك من موجبات اضمحلال أثر المصيبة وانقلاب السّيّئة حسنة.

إنّ اختلاط تأنيب الضّمير مع تخلّي إبليس عن صاحب المعصية بل وتأنيبه عليها كما حكى الله عنه في قوله :

{ كمثل الشّيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنّي بريء منك إنّي أخاف الله } [الحشر : 16] ، قد يصيب العبد بحالة من اليأس وينسى مشهد المصيبة هذا فيضيع عليه فرصة كبيرة لمحو أثر الذّنب على النّفس .

وبعض النّاس إذا وقع في ذنب ما لجأ إلى تحميل النّفس أكثر ممّا تطيق ويزيد عليها في الكيل ، فيسيء

oooooooooooooooooooooooooooooooo

الظّنّ بنفسه ، ويترسّخ في عقله أنّ نفسه خبيثة لا تعتدل ، وهذا هو الخطأ بعينه .

إنّ النّفوس كلّها كُتب عليها حظّها من المعصية لا محالة ، وإنّما الذّنوب محطّات يتوقّف فيها العبد ليتذكّر ضعف نفسه ، وأنّه في إيمانه وعبادته على الله وبالله ومن الله ، وأنّه لولاه سبحانه ما اهتدى مهتدٍ ولا آمن مؤمن .

والنّبيّ ε ذكر هذا ، فنهى عن تعذيب النفس بسبب وقوعها في ذنب ، بل ذهب أبعد من ذلك فنهى أن يسيء العبد الظّنّ بنفسه فقال :

(**لا يقل أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي**)[1].

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب ح6179 ومسلم في الألفاظ من الأدب ح 2250 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

فإذا كان الذّنب مصيبة فيُعامل معاملة المصائب:

ويُنظر لما هو أعظم منه إن غلب الخوف ، وإلى عذاب الله لما هو أصغر منه إن غلب الرّجاء .

فإذا غلب الخوف على قلب المؤمن حتّى يخشى على نفسه القنوط واليأس فلينظر إلى عفو الله تعالى الّذي شمل به من هو أعظم جرماً منه ، فمن ذلك ما ثبت في الصّحيح عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً :

(إنّ رجلاً كان قبلكم رغسه الله مالاً فقال لبنيه لمّا حُضر : أيّ أبٍ كنت لكم ؟ قالوا : خير أبٍ ، قال : فإنّي لم أعمل خيراً قط ،فإذا أنا مت فاحرقوني ثمّ اسحقوني ثمّ ذروني في يوم عاصف ،

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ففعلوا ، فجمعه الله عزّوجلّ فقال : ما حملك ؟ قال : مخافتك ، فتلقّاه برحمته)[1] .

ومنه حديث البطاقة المشهور الّذي رواه التّرمذي :

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النّبيّ ε قال :

(إنّ الله سيخلّص رجلاً من أمّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلاًّ ، كلّ سجلٍّ مثل مدّ البصر ثمّ يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفَلَك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إنّ لك عندنا حسنةً فإنّه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد

---

(1) أخرجه البخاري في الأنبياء باب54 ح 3478 عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أنّ محمّداً عبده ورسوله ، فيقول : أحضر وزنك ، فيقول : ياربّ ماهذه البطاقة مع هذه السّجلاّت ، فقال : إنّك لا تُظلم ، قال : فتُوضع السّجلاّت في كفّة والبطاقة في كفّة ، فطاشت السّجلاّت وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء)[1].

ومنه حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ε قال :

(كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا فقتله فجعل يسأل فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فناء بصدره نحوها

(1) أخرجه أحمد 2 / 213 و التّرمذي في الإيمان باب ماجاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلاّ الله ، وابن ماجة في الزّهدباب مايُرجى من رحمة الله ، والحاكم 1 / 529 وهو حديث صحيح.

فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له)[1].

فإذا نظر العاصي إلى هذه الأمثلة هانت عليه مصيبته الّتي فعل دون ما فعل هؤلاء .

وأمّا إذا غلب عليه الرّجاء والتّساهل في الذّنب ، فلينظر إلى أقوام ممّن عصوا فكان عقابهم أشدّ ممّا يُتصوّر ، فمن ذلك ما ذكره النّبيّ ε قال :

(**بينما رجل يجرّ إزاره من الخيلاء خُسف به فهو**

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ح 3470 ومسلم في التّوبة ح2766.

يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة)[1] .

وما ذُكر أنّ النّبيّ ε قال لرجل وهو يأكل بشماله : (**كل بيمينك ، فقال الرّجل : لا أستطيع فقال له : لا استطعت ، قال الرّاوي : ما منعه إلاّ الكبر ، فما رفعها إلى فيه أبداً)**[2].

ومنه ما صحّ عنه ε أنّه قال :

(**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم)**[3] وفي رواية : (**أبعد ما بين المشرق والمعرب)**.

---

(1) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ح3485 ، ومسلم في اللّباس ح2088 .

(2) أخرجه مسلم في الأشربة عن سلمة بن الأكوع عن عمّه ح2021.

(3) أخرجه البخاري في الرّقاق ح 6478 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وليتذكّر أنّه عصى عظيماً شديد العقاب ، فإذا شهد هذا المشهد عظم في نفسه ما كان له قبلُ محتقراً،وكان ذلك دافعاً له إلى إخلاص التّوبة والصّدق فيها .

أتبع السّيّئة الحسنة

من الأمور المشاهدة كثيراً ، أنّنا نرى بعض أهل الدّنيا على ما نسمع عنهم من الوقوع في المعصية ، إلاّ أنّ النّعمة عليهم تزيد كلّ يوم .

و قد عرفنا من النّصوص الشّرعيّة أنّ الله يستدرج العاصي بزيادة النّعمة عليه ، فليست النّعمة إذن دليل الرّضا من الله تعالى على العبد .

لكنّ هناك أمر آخر لا يغيب عنّا ، وهو أنّ الله تعالى يدفع عن العبد عقابه بحسناته ، قال تعالى :

oooooooooooooooooooooooooooooo

{ **ويدرؤون بالحسنة السّيّئة** }[الرّعد : 13] .

وقال النّبيّ ε لمعاذ حين أوصاه : (**وأتبع السّيّئة الحسنة تمحها**)[1].

إنّ البعض من هؤلاء الّذين نراهم أهل عبث ومجون ، لهم في السّرّ أعمال خير يريدون بها وجه الله ، والله تعالى يتقبّل العمل من المخلص ، وليس من شرط القبول كمال الطّاعة ، فلعلّ لبعضهم صلاةً وصياماً لا نعرف عنها نحن .

ولعلّ لبعضهم نفقات : ومن المعلوم أنّ الصّدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النّار[2] .

---

(1) أخرجه أحمد 5 / 153،157 ، 177 والتّرمذي 1987 والحاكم 1 / 54 وغيرهم .

(2) أخرجه التّرمذي في الزّكاة ح 614 ، 2616 وابن ماجة في الزّهد ح4210 عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، وفي رواية للتّرمذي برقم 664 (**تطفىء غضب الرّب**).

ooooooooooooooooooooooooooooooo

والّذي أريد الوصول إليه أنّ من سياسة النّفس إذا ضعفت في جانب ترك معصية ما ، **أن تُصرف إلى جانب عمل البر ، فإنّ السّيّئة ترجّح ميزان السّيّئات ،** فالعقل يقتضي أن نعادل كفّتي الميزان أو نرجّح كفّة الحسنات بفعل المزيد منها ، ليبقى الميزان راجحاً في صالح الحسنات.

فإذا رأى العبد من نفسه الوقوع في المعصية وعجزه عن تركها فليبادر إلى حسنة تميل إليها النّفس ولا تستثقلها ، قال الغزالي رحمه الله : (بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التّائب إن جرى عليه ذنب إمّا عن قصد وشهوة غالبة أو بحكم الاتّفاق :

اعلم أنّ الواجب عليه التّوبة والنّدم والاشتغال بالتّفكير بحسنة تضادّه ، فإن لم تساعده النّفس على العزم على التّرك لغلبة الشّهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثّاني : وهو أن يدرأ

بالحسنة السّيّئة ليمحوها فيكون ممّن خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، ...فعلى الأحوال كلّها ينبغي أن يحاسب نفسه كلّ يوم ويجمع سيّئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات)[1].

وأولى هذه الحسنات بتكفير السّيّئات هو برّ الوالدين ، فقد جاء عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه جاءه رجل فقال له : إنّي خطبت امرأة فأبت أن تنكحني وخطبها غيري فأحبّت أن تنكحه فغِرتُ عليها فقتلتها فهل لي من توبة ؟ قال : أمّك حيّة ؟ قال : لا ، قال : تُب إلى الله عزّ وجل وتقرّب إليه ما استطعت ، قال عطاء بن يسار : فسألت ابن عبّاس : لم سألته عن حياة أمّه ؟

---

(1) إحياء علوم الدّين 4 / 291 ـ292 بتصرّف .

فقال : إنّي لا أعلم عملاً أقرب إلى الله من برّ الوالدة ([1]).

ومن أفضل هذه الحسنات الماحيات الإنفاق ، فإن كان العبد ذا مال فلينفق ما استطاع في سبيل الله في كلّ وجوه البرّ الّتي يستطيعها ، وإن كان ذا مال يسير فلينفق أيضاً فإنّ خير الصّدقة جهد المقل كما قال النّبيّ ε ([2]).

وكذلك سائر وجوه الإحسان إلى الغير هي من المكفّرات المعروف أثرها في محو السّيّئة وزيادة الحسنات ، والسّنّة خير شاهد :

فمن ذلك قوله ε :

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد وصحّح الألباني رحمه الله تعالى في صحيح الأدب المفرد برقم 4/4 .

(2) أخرجه أبوداود في الصّلاة ح 1449 والنّسائي في الزّكاة ح 2526 وأحمد في المسند ح 14975 عن عبدالله بن حبشي الخثعمي رضي الله عنه ، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو في صحيح الجامع برقم 1112 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

(بينما كلب يطيف بركيّة كاد يقتله العطش إذ رأته بغيّ من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فاستقت له به فغُفر لها)[1] .

ومنه قوله :

(بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطّريق فأخّره فشكر الله له فغفر له)[2] .

ومنه قوله ε :

(صدقة السّر تطفىء غضب الرّب ، وصلة الرّحم تزيد في العمر ، وفعل المعروف يقي مصارع السّوء)[3] .

---

(1) أخرجه البخاري في الأنبياء ح3467 ومسلم في السلام ح224.
(2) أخرجه البخاري في الأذان 654 ومسلم في الإمارة ح1914 .
(3) صحيح الجامع برقم 3760 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

فإن عجز المؤمن عن نفع الغير فعليه بما تطيقه نفسه من أعمال الخير كالصّلاة مثلاً ، فقد جاء رجلٌ إلى النّبيّ ε وذكر له أنّه لقي في طريقه امرأة ففعل بها كلّ شيء إلاّ النّكاح(1) فنزل قوله تعالى :

{ أقم الصّلاة طرفي النّهار وزلفاً من الّليل إنّ الحسنات يذهبن السّيّئات } فقال الرّجل : ألِي هذا يا رسول الله ؟ قال : **لمن عمل بها من أمّتي**)(2).

ومثّل النّبيّ ε لها بأروع مثال فقال :

(أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرّات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا :

---

(1) أي أنّه لم يجامعها .

(2) أخرجه البخاري في مواقيت الصّلاة ح 526 ومسلم في التّوبة ح2763 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

لايبقي من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصّلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا)[1].

وكالصّوم فقد قال ε :

(**من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النّار سبعين خريفاً)**[2].

والحجّ والعمرة ، فإنّ النّبيّ ε يقول :

(**العمرة إلى العمرة كفّارة لما بينهما من الذّنوب والخطايا، والحجّ المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنّة)**[3].

---

(1) أخرجه البخاري في مواقيت الصّلاة ح 528 ومسلم 667.

(2) أخرجه البخاري في الجهاد ح 2840 ومسلم في الصيام ح 1153 .

(3) أخرجه البخاري في الحج ح 1773 ومسلم في الحج ح1349 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وعلى العموم فإنّ المهم أن تكون هذه الحسنة مقارنة للذّنب في جنسه وخطورته ، فإذا وقع العبد في صغيرة فعل مقابلها حسنة تقارنها في أهمّيّتها وفضلها ، وإذا وقع في كبيرة فعل مقابلها من الحسنات واستكثر منها حتّى يرى من نفسه أنّه غطّى على أثر تلك الكبيرة ، مع التّوبة الصّادقة في كلّ مرّة يقع في ذلك الذّنب .

وهذا الأمر نبّه إليه الغزالي رحمه الله تعالى حيث قال : (وأمّا المعاصي فما كان بينه وبين الله تعالى فالتّوبة عنها بالنّدم والتّحسّر عليها ، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكِبَر ومن حيث المدّة ، ويطلب لكلّ معصية منها حسنة تناسبها ، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السّيّئات ، أخذاً من قوله ع :

oooooooooooooooooooooooooooooo

(**اتّق الله حيثما كنت وأتبع السّيّئة الحسنة تمحها**)[1] .

ومن قوله تعالى :

{ إنّ الحسنات يذهبن السّيّئات } .

والمقصود سلوك الطّريق المضادّة ، فإنّ المرض يُعالج بضدّه ، فكلّ ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلاّ نورٌ يرتفع إليه بحسنة تضادّها ، فلذلك ينبغي أن تمحي كلّ سيّئة بحسنة من جنسها لكن تضادّها

عن أبي مسعود الأنصاري قال : **كنت أضرب غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً :اعلم أبا مسعود لله أقدرُ عليك منك عليه ،فالتفت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقلت : يا رسول الله هو حرٌ**

---

(1) صحيح الجامع برقم 97 .

(2) بتصرّف من إحياء علوم الدّين 4 / 276 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

لوجه الله ،فقال : أما لو لم تفعل لَلَفحتك النار أو لمسّتك النار)[1].

ومن طريف هذا المعنى ، ما ذكره السّبكي في طبقاته عن أبي إبراهيم المزني صاحب الشّافعي إمام الشّافعيّة في عصره : (أنّه كان إذا فاتته صلاة الجماعة صلاّها خمساً وعشرين مرّة)[2]، لأنّ صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بخمس وعشرين مرّة .

---

(1) أخرجه مسلم ح1659 .

(2) طبقات الشّافعيّة 94/2.

oooooooooooooooooooooooooooooo

لا يسلم عبدٌ من جنس المعصية

من الأخطاء الّتي تسرّبت إلينا من ثقافة الصّوفيّة المأخوذة أصلاً من رهبانيّة النّصارى ورياضات البوذيّين وغيرهم ، طلب الوصول **إلى حالة السّلامة الكاملة** من الذّنوب ، **وهذا محال** .

لأنّ جنس الذّنب لا يسلم منه بشر ، وكون المؤمن يجعل هذا غايته فهو يطلب المستحيل ، إلاّ أن يجعلها غاية مطلوب منه تحقيق أقرب النّتائج إليها .

غير أنّ ذلك لا يكون على حساب نسبة التّقصير في ذلك إلى النّفس ومن ثمّ فقدان الثّقة بها .

إنّ الله تعالى خلق الإنسان في هذه الحياة وجعل له أجلاً يكتسب فيه الصّالحات، فمن قدم على الله بميزان

oooooooooooooooooooooooooooooo

حسنات راجح فهو النّاجي إن شاء الله تعالى ، بغضّ النّظر عمّا وقع فيه من السّيّئات إذا كان موحّداً .

وإنّ النّاظر إلى النّصوص يدرك بجلاء أنّ مراد الله تعالى من العبد ليس مجرّد السّلامة من المخالفة ، بل المراد بقاء العلاقة بين العبد وربّه بمعنى : أن يطيعه العبد فيُؤجر ، ويذنب فيستغفر ، وينعم عليه فيشكر ، ويقتّر عليه فيدعوه ويطلب منه ، ويضيّق أكثر فيلجأ ويضطر ، وهكذا .

ولذلك ورد في بعض الآثار أنّ العبد الصّالح يغفل أو ينسى فيضيّق الله عليه ببلاء ، حتّى يسمع صوته بالدّعاء والالتجاء .

وورد أنّ العبد المؤمن يكثر من الذّكر ولا يستغفر فيقدّر الله عليه الذّنب ليسمع صوته في الاستغفار .

وورد أيضاً قوله ε :

ooooooooooooooooooooooooooooooo

(**لولا أنّكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر الله لهم**)[1].

ولهذا كان النّبيّ ε مع سلامته من الذّنوب يكثر من أن يستغفر ، إمّا لرؤيته تقصيراً من نفسه في حقّ ما يرى من نعمة الله عليه ، أو لأنّه يرى من نفسه تقصيراً في الذّكر خصوصاً عندما يدخل الخلاء أو نحو ذلك .

والمهم أنّه ε يحقّق الإرادة القدسيّة في أن يستمرّ العبد في طلب المغفرة من الله تعالى ، كبيان أنّه لا يسلم عبد ما من جنس التّقصير الّذي يوجب طلب المغفرة ، إمّا تقصيراً عن الأكمل في نظرهم كما في حقّ الأنبياء ، أو وقوعاً في الذّنب كما في حقّ غيرهم .

---

(1) أخرجه مسلم في التّوبة ح 2748 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ومن الحماقة أن يشغل العبد نفسه بالتّخلّص م ن ذنب معيّن حتّى يفوته من القربات ما يمحو أثر ذلك الذّنب ولا يكون له معها أيّ تأثير على العبد.

أو حتّى يقع فيما هو أعظم منه من الذّنوب الّتي تؤثّر فعلاً في النّفس وترجّح كفّة ميزان الخسارة على الفلاح ، بسبب غفلته عنها ورؤيته لذنب معيّن يكبر في نفسه .

وكلّ ذلك بسبب التّفكير العاطفي والخيالي ، والسّعي لبلوغ ما لم يُطلب من العبد بلوغه .

فإنّ البعض يُبتلى بعمل قد يكون شبهة ولم يرتق لأن يكون ذنباً صريحاً ، لكنّ هذا العمل يُعتبر في مجتمعه علامة لغير المتديّن وشعاراً للفسقة ، فيشغله هذا الفعل ويعظم في نفسه طلباً للتّمظهر والشّعاريّة مع أنّه يقع في كبائر صريحة غير أنّها ليست شعاراً ومظهراً كالغيبة والنّميمة .

oooooooooooooooooooooooooooooo

أو بسبب الحرص على الكمال والسّلامة من الذّنوب وهو شيء محال ، ينبغي أن لا يشغل العبد نفسه به فيقع في الفتور واليأس ، إذا ظنّ أنّ هذا غاية التّديّن وهدف الالتزام بالدّين .

وتأمّل معي قوله ε : (**سدّدوا وقاربوا وأبشروا**) [1] فإنّ فيه معنىً لطيفاً يقطع الطّمع على المؤمن أن يبلغ حقيقة التّديّن والقيام بحقوق الله تعالى ، بل المطالبة أن يسدّد العبد وأن يقارب فكأنّ الإصابة غير ممكنة ، ولكن كلّما كان سهم العبد أقرب إلى الإصابة فهو أقرب للسّلامة ، وهذا هو معنى ما ذكرناه فلله الحمد .

---

(1) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرّقاق باب قول النّبيّ ε (**لو تعلمون ما أعلم**) عن أبي هريرة وأنس τما .

وطّن نفسك على التّوبة

فإذا وطّن العبد نفسه على التّوبة من الذّنب كلّما وقع فيه سكنت نفسه عن التّطلّع لِلوقوع في الخطأ .

أو على الأقل أضعفت أثر الذّنب في النّفس ، فالتّوبة لا يقوم بوجهها شيء من الذّنوب والخطايا بالغاً ما بلغ ، إذا صدق العبد فيها ، وذاق قلبه حرقة النّدم وألم الحسرة من زلّة الذّنب .

وإذا عرف ربّك منك تكرار التّوبة وتعاهدها فلا أثر لذنبك بعد ذلك أبداً .

وإذا عرف إبليس منك كثرة التّوبة وتعاهدها قنط وأيس منك.

oooooooooooooooooooooooooooooo

فأهلِك إبليس بتعاهد التّوبة في كلّ وقت وإن كثرت ، فإنّ الله لا يملّ منها كما يملّ ابن آدم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ε :

(أنّ رجلاً أذنب ذنباً فقال : أي ربّ أذنبت ذنباً فاغفر لي ،فقال : عبدي أذنب ذنباً فعلم أنّ له ربّاً يغفر الذّنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي ، ثمّ أذنب ذنباً آخر ، فقال : ربّ إنّي عملت ذنباً فاغفر لي ، فقال : علم عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذّنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ، ثمّ عمل ذنباً آخر فقال : ربّ إنّي عملت ذنباً آخر فاغفر لي ، فقال الله تبارك وتعالى : علم عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذّنب ويأخذ به ، أشهدكم أنّي قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء)[1].

---

(1) أخرجه البخاري في التّوحيد 7507 ومسلم في التّوبة ح2758.

ooooooooooooooooooooooooooooooo

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى : (شرط بعض النّاس عدم معاودة الذّنب ، وقال : متى عاد إليه تبيّنّا أنّ التّوبة كانت باطلة غير صحيحة .

والأكثرون على أنّ ذلك ليس بشرط وإنّما صحّة التّوبة موقوفة على الإقلاع عن الذّنب والنّدم عليه والعزم الجازم على ترك معاودته)[1].

وفي المستدرك أنّ النّبيّ ε جاءه رجل فقال:

(يا رسول الله أحدنا يذنب ، قال : يُكتب عليه ، قال : ثمّ يستغفر منه ، قال : يُغفر له ويُتاب عليه ، قال : فيعود فيذنب ، قال : يُكتب عليه ، قال : ثمّ يستغفر منه ويتوب ، قال : يُغفر له ويُتاب عليه ،ولا يملّ الله حتّى تملّوا)[2].

---

(1) مدارج السّالكين 1 / 301 .

(2) المستدرك 1 / 59 وصحّحه ووافقه الذّهبي .

oooooooooooooooooooooooooooooo

وعن عليّ قال : (خياركم كلّ مفتّن توّاب ، قيل : فإن عاد ؟ قال : يستغفر الله ويتوب ، قيل : فإن عاد ؟ قال : يستغفر الله ويتوب ، قيل : فإن عاد ؟ قال : يستغفر الله ويتوب ، قيل : حتّى متى ؟ قال : حتّى يكون الشّيطان هو المحسور .

وقيل للحسن : ألا يستحي أحدنا من ربّه يستغفر من ذنوبه ثمّ يعود ثمّ يستغفر ثمّ يعود ، فقال : ودّ الشّيطان لو ظفر منكم بهذه ، فلا تملّوا من الاستغفار)[1].

كما أنّ كثرة التّوبة يزيل أثر الذّنب في الدّنيا والآخرة ، وهو ارتباط وثيق بين الله وبين العبد امتدح الله به نبيّ الله إبراهيم فقال :

{ نعم العبد إنّه أوّاب } [ص : 44] .

---

(1) جامع العلوم والحكم 1 / 414ـ415 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

فليس من شرط الولاية السّلامة من الذّنوب ، ولكن عدم الإصرار عليها والتّوبة منها ، كما قال تعالى:

{ وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السّماوات والأرض أُعدّت للمتّقين الّذين ينفقون في السّرّاء والضّرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس والله يحبّ المحسنين والّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذّنوب إلاّ الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون } [آل عمران : 135] ، ولا أصرح من هذه الآية على أنّ الرّجل قد يكون من المتّقين بل والمحسنين ومع ذلك فقد يقع منه الذّنب بل الفاحشة ولا يمنع ذلك من بلوغه مرتبة المتّقين أهل الجنّة ، بشرط أنّه إذا فعل الفاحشة تذكّر وأقلع وتاب ، فهو إذاً لا يصرّ على المعصية مع أنّه قد يقع فيها المرّة بعد المرّة لكنّه يتوب منها أيضاً كلّ ما وقع فيها .

oooooooooooooooooooooooooooooooo

قال ابن رجب : (وظاهر النّصوص تدلّ على أنّ من تاب إلى الله توبة نصوحاً واجتمعت شروط التّوبة في حقّه فإنّه يُقطع بقبول الله توبته ، كما يُقطع بقبول إسلام الكافر إذا أسلم إسلاماً صحيحاً وهذا قول الجمهور ، وكلام ابن عبدالبر يدلّ على أنّه إجماع)(1).

قال ابن الجوزي : (من هفا هفوة لم يقصدها ولم يعزم عليها قبل الفعل ، ولا عزم على العودة بعده ، ثمّ انتبه فاستغفر الله كان فعله وإن دخله عمداً في مقام خطأ ، مثل أن يعرض له مستحسن (2) فيغلبه الطّبع فيطلق النّظر ، فإذا انتبه لنفسه ندم على فعله ، فقام النّدم بغسل الأوساخ الّتي كأنّها غلطة لم تُقصد ، فهذا معنى قوله تعالى : { **إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف**

---

(1) جامع العلوم والحكم 1 / 418 .

(2) يقصد امرأة حسناء .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

من الشّيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون } [الأعراف : 201].

فأمّا المداوم على تلك النّظرة المردّد لها ، المصرّ عليها ، فكأنّه في مقام متعمّدٍ للنّهي مبارزٍ بالخلاف ، فالعفو يبعد عنه بمقدار إصراره)[1].

(1) صيد الخاطر ص168 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

أكثر من الاستغفار

قد يضعف إيمان المؤمن عن التّوبة من ذنب معيّن ، أو لربّما لا تساعده ظروف حياته على الإقلاع عن هذا الذّنب .

وإذا كان الحال هكذا فلا ينبغي للمؤمن أن يعجز عن الاستغفار ، فالاستغفار من أسباب المغفرة ، ومن وسائل تخفيف أثر الذّنب ، وهذا ليس بمستنكر .

فالاستغفار المقرون بالتّوبة له شأن آخر ، لأنّ من تاب من الذّنب توبة مكتملة الشّرائط وجبت له من الله المغفرة .

وأمّا الاستغفار دون إقلاع عن الذّنب فإنّه وإن كان أقلّ درجة لكن لا يُعدم العبد منه فائدة ، لأنّه تعرّض بالدّعاء لنيل رحمة الله تعالى ومغفرته للذّنب .

oooooooooooooooooooooooooooooo

والسّلف رحمهم الله قرّروا ونبّهوا أنّ مجرّد الاستغفار دون الإقلاع عن الذّنب أو العزم عليه ليس التّوبة الّتي وعد الله عليها بالمغفرة .

وبيانه أنّ الاستغفار درجات :

أولاها : الاستغفار المقرون بالتّوبة وهي أعلاها، ومذهب أهل السّنّة الجزم بترتّب المغفرة على الاستغفار المقرون بالتّوبة للنّصوص المتوافرة على ذلك ، ومنها قوله ε :

(**التّائب من الذّنب كمن لا ذنب له**)[1].

---

(1) أخرجه ابن ماجة برقم 4250 والطّبراني في الكبير 1028 وأبو نعيم في الحلية 4 / 210 وغيرهم ، وفي سنده ضعف ، وحسّنه الحافظ بشواهده كما في المقاصد للسّخاوي ص 152 .

قال ابن رجب : (فالاستغفار التّامّ الموجب للمغفرة هو ما قارن عدم الإصرار كما مدح الله أهله ووعدهم المغفرة.. وهو حينئذ توبة نصوح)(1).

الثّانية : الاستغفار بالقلب واللّسان من الذّنب لكن دون أن يقترن به توبة أو عزم على الإقلاع ، وهذه أدنى من الّتي قبلها لكنّها محمودة .

وهي واقعة يقع فيها كثير من النّاس ، فهو إذا واقع ذنباً لامته نفسه فيستغفر ويدعو الله أن يغفر له لكن لا يقارن ذلك عزمه على الإقلاع لضعف إيمانه وشدّة تعلّق قلبه بالذّنب ، أو لغفلته عن التّوبة ، قال شيخ الإسلام رحمه الله : (فإن الإستغفار هو طلب المغفرة وهو من جنس الدّعاء والسؤال ، وهو مقرون بالتوبة في الغالب ومأمور به ، لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو ، وقد

---

(1) شرح الأربعين 2 / 410 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

يدعوا ولا يتوب) وساق حديث أبي هريرة المتقدّم (...**علم عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذّنب ويأخذ به ، أشهدكم أنّي قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء)** [1] ثمّ قال :(والتّوبة تمحو جميع السّيئات ، ...وأمّا الاستغفار بدون التّوبة فهذا لا يستلزم المغفرة ، ولكن هو سبب من الأسباب)[2].

الثّالثة : الاستغفار العام باللّسان دون القلب ، لكن بدون توبة من ذنب معيّن أو إقلاع عنه ، قال ابن رجب : (وإن قال بلسانه : أستغفر الله وهو غير مقلع بقلبه فهو داعٍ لله بالمغفرة كما يقول : اللّهمّ اغفر لي ، وهو حسنٌ وقد يُرجى له الإجابة ، وأّما من قال : توبة

---

(1) تقدّم .

[2] منهاج السّنّة 6 /210-212 .

الكذّابين فمراده أنّه ليس بتوبة كما يعتقده بعض النّاس ، وهذا حق ، فإنّ التّوبة لا تكون مع الإصرار)[1].

وقال : (ومجرّد قول القائل : اللّهمّ اغفر لي طلب للمغفرة ودعاء بها ، فيكون حكمه حكم سائر الدّعاء إن شاء أجابه وغفر لصاحبه ، لا سيّما إذا خرج من قلب منكسر بالذّنب وصادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصّلوات .

ويُروى عن لقمان عليه السّلام أنّه قال لابنه : يا بنيّ عوّد لسانك : اللّهمّ اغفر لي فإنّ لله ساعات لا يردّ فيها سائلاً .

وقال الحسن : أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي اسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم فإنّكم لا تدرون متى تنزل المغفرة)[2].

---

(1) جامع العلوم والحكم 2 / 410 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

لقد تعهّد إبليس أن يكسر نفس ابن آدم ويذلّها بالمعصية ، وإذا كان كذلك فما من شيء اشدّ عليه في حال المعصية من أن يستغفر العاصي ، قال الحسن رحمه الله تعالى : بلغنا أنّ إبليس قال : سوّلت لأمّة محمّد ε المعاصي ، فقصموا ظهري بالاستغفار .(2)

---

(1) جامع العلوم والحكم 2 / 408 .

(2) الإحياء للغزالي 1 / 153 .

لا تكن ذباباً ؟؟

لاشكّ أنّ جنس الذّنب مرفوض قطعاً ، غير أنّه فرق بين ذنب يقع فيه العبد بمقتضى الفطرة ، وبين ذنب يقع فيه العبد وهو في الأصل مصادم للفطرة .

فالزّنا مثلاً مع عظمه إلاّ أنّه لا يُقارن باللّواط ، لأنّ الزّنا يقع فيه العبد تحت ضغط الميل الغريزي في الذّكر نحو الأنثى .

وأمّا اللّواط فمصادمته للفطرة لا يتشكّك فيها عاقل ، فإنّه مقزّز للنّفوس السّويّة ، وليس في أصل غرائز المخلوقات ميل الجنس لمثله ، (1) بل لايكون هذا إلاّ

(1) حتّى الجماد ينفر من شبيهه في الشّحنة .!

oooooooooooooooooooooooooooooooo

نفس انتكست فيها الفطرة ، فأصبحت تستلذّ بالقبيح وتستقبح اللّذيذ .

وكذلك هناك فرق بين ذنب يقع فيه العبد بلا تدبير ، وبين ذنب يرصده العبد رصداً ليقع فيه .

والمقصود هنا ترك الذّنوب الخسيسة ، الّتي تكون دوافع الوقوع فيها ضعيفة ، وإنّما يفعلها العبد لانتكاس فطرته وميله للمخالفة ، ولو لم يكن لها من داع .

ولهذا قال ε :

(**لعن الله السّارق يسرق البيضة فتُقطع يده ويسرق الحبل فتُقطع يده**)[1] .

فانظر كيف لعن النّبيّ ε سارق البيضة والحبل ، لحقارتها فإنّها لا تسمن ولا تغني من جوع ، وإنّما يفعلها

(1) أخرجه البخاري في الحدود ح6783 ومسلم في الحدود ح1687 .

السّارق لميله إلى المخالفة الّتي أصبحت من صميم خُلُقه [1]بسبب انتكاس فطرته .

كذلك الوقوع في الذّنوب الخسيسة الّتي تأنف منها النّفوس الأبيّة ولو فُرض أنّه لم يأت شرع بتحريمها ، كالبخل ، والكذب ، والغدر والمكر والخيانة والأنانية واللّواط وإتيان المحارم وعقوق الوالدين وغير ذلك ممّا كانت العرب تستنكف عنه لخبثه وخساسته ، لأنّ العبد لا يعوزه مثلها ولا يقع فيها إلاّ لدناءة في النّفس ، وخساسة في الخلق ، فينبغي تعويد النّفس على التّرفّع عنها .

وقد جاء في الصّحيح عن أبي سفيان رضي الله عنه أنّه لما سأله هرقل عن النّبيّ ε صدق في قوله وقال : (

---

(1) وهذا السّارق لا يُراد به المضطر لأنّ الشّرع أباح للمضطرّ أخذ ما ينجيه من الهلاك إذا لم يستطع الحصول عليه من وجه مباح .

والله لولا الحياء يومئذ أن يأثر أصحابي عنّي الكذب لكذبت ولكنّي استحييت أن يأثروا عنّي الكذب)[1].

وكذلك قال بعض السابقين : والله لولا أنّ الله حدّثنا ما صدّقت أنّ رجلاً يأتي رجلاً .

ولما قال النّبيّ ε :

(**إنّ من أكبر الكبائر أن يلعن الرّجل والديه**) قال له الصّحابة : وكيف يلعن الرّجل والديه ؟ [2] ، فهم لا عهد لهم بهذا الذّنب الشّنيع.

ومن سياسة النّفس أن تلجم عن الخلق الذّبابي : الوقوع على كلّ ما هو قذر وخبيث ، لمجرّد خبثه ، وترك الحسن والجميل .

---

(1) أخرجه البخاري في الجهاد ح2941 .

(2) أخرجه البخاري في الأدب ح 5937 عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

فتعويد النّفس على التّرفّع عن الخسائس والقاذورات أمر مهم ، إذ هو مساعد على الالتزام بالشّرع ، فإذا اقتنع العقل اقتناعاً تامّاً بقبح المعصية وحسن الطّاعة كان ذلك قاعدة تعينه جدّاً على حفظ توازنه في السّير إلى الله تعالى وإن مال به الطّريق قليلاً.

oooooooooooooooooooooooooooooo

فوائد الذّنوب للمؤمن والحكمة منها

النّاس إذا وقعوا في الذّنوب على حالين :

فالبعض ينظر إلى القدر ويرى أنّ الذّنب مُقدّر من الله تعالى عليه وقد حاول الخلاص فلم يستطع ، فالنّتيجة إذن أنّ الله قدّر هذا عليّ وهو يحدث رغماً عنّي ، وما حيلتي فيما لا قدرة لي عليه، وما حيلتي إن كان الله لا يريد لي الهداية وكتب عليّ الشّقاء ؟ هكذا يبرّر لنفسه الاستمرار في الغيّ والبعد عن الرّشد.

والبعض الآخر يعاقب القدر بزعمه ، فبما أنّ الله قدّر عليّ هذا وأنا أريد الهداية فلا يوفّقني ، فإلى المزيد من المعاصي ، ويغرق في الذّنوب .

oooooooooooooooooooooooooooooo

وكلا الحالين ناتجٌ من سوء فهم لحقيقة القضاء والقدر من جانب ، وسوء فهم لحقيقة العبوديّة ومراد الله تعالى من خلقه .

فالله تعالى وإن كان قدّر القدر وقضى على الخلق وكتب في اللّوح المحفوظ كلّ شيء ، لكنّه يبغض المعصية ولا يريدها شرعاً وإن كان قدّرها كوناً .

ثمّ إنّ هذا الّذي يقول لنفسه هذا الكلام يجهل حقيقة العبوديّة ، فإنّ مراد الله تعالى من خلقه غير ما يظن ، ومن الّذي قال إنّ الله تعالى يريد من العبد أن يكون سليماً من المعصية ؟ .

بل إنّ النّبيّ ε أكّد هذا لأصحابه حين ظنّوا هذا الظّنّ فقال :

ooooooooooooooooooooooooooooooo

(لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بغيركم فيذنبون فيستغفرون فيغفر لهم)[1].

هذه هي حقيقة العلاقة بين الله تعالى وخلقه ، ينعم عليهم ليشكروا ، ويذنبون فيستغفرون فيغفر لهم .

كما أنّ لله تعالى حكماً في تقدير الذّنوب على العباد ، فليس في خلق الله تعالى شرّ من كلّ وجه ، بل في كلّ شيء له حكمة قد نعلمها وقد لا نعلمها .

منها : تحقيق اسم الله تعالى الغفور وصفة المغفرة والعفو والحلم والصّبر وغير ذلك من أسمائه وصفاته ، فإنّ كلّ صفة لا بدّ لها من مقتضٍ وآثار تصدر عنها ، فلولم يذنب العباد فكيف يعرفون سعة عفوه ورحمته وحلمه ؟.

---

(1) تقدّم .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ومنها : أنّ يرى العبد حقيقة نقصه وأنّه ضعيف ، وأنّه لولا الله سبحانه لم يهتدِ ولم يؤمن ، قال تعالى مذكّراً بهذه الحقيقة :

{ واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه }
[الأنفال : 24] ، وكان أكثر دعاء النّبيّ ε :

(يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك)(1).

والغرض من ذكر هذا الكلام أمران :

الأوّل : أنّك إذا جاهدت نفسك على ترك الذّنب حقّ المجاهدة فلم يُقدّر لك أن تقلع عنه فلا تعتقد أنّك بعيدٌ من الله ، بل إنّك قد تكون أقرب إلى الله تعالى من

---

(1) أخرجه التّرمذي في الدّعوات باب90، وللمزيد عم الحكمة من تخلية الله بين البد وبين المعصية انظر مدارج السّالكين لابن القيّم 1 / 226 وما بعدها . .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

رجل سليم من الذّنب ، وهذا هو معنى قول السّلف : (أنين المذنبين أحبّ إلى الله من زجل المسبّحين) .

فعليك بالمواصلة في المجاهدة فإذا جاءك الأجل وأنت على هذه الحال فقد برئت ذمّتك وأنت للفوز أقرب ، يدلّ على هذا دليلان :

أوّلهما : قوله تعالى :

{ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثمّ يدركه الموت فقد وقع أجره على الله } [النّساء :100] .

وثانيهما : حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ε قال :

(كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا فقتله فجعل يسأل فقال له رجل

oooooooooooooooooooooooooooooooo

ائت قرية كذا وكذا فأدركه الموت فناء بصدره نحوها فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له)[1].

ففي النّصّين دليلٌ على أنّ من نوى واجتهد **بلّغه الله مراده** وإن لم يصل إليه في الواقع ! .

الثّاني : أنّك يجب أن تؤمن بقضاء الله تعالى وتسأله حسن الخيرة لك ، فلربّما كان عدم إقلاعك عن الذّنب خيرٌ لك ،ولربّما علم الله أنّك إن أقلعت وتخلّصت دخلك الكِبر والعجب فتهلك .

كالغنى والفقر ، فبعض النّاس لا يصلحه إلاّ الفقر لأنّ الله علم أنّه بالغنى يطغى .

---

(1) تقدّم ص65 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ومنهم من لا يصلحه إلاّ الغنى لأنّه بالفقر يضجر وينسى، فالتّسليم بعد المجاهدة وبذل الطّاقة والوسع ، أولى بالمؤمن .

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى : (الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التّوبة من كثير من الطّاعات ، وهذا معنى قول بعض السلف : قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنّة ، قالوا : كيف ذلك ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه إن قام وإن قعد وإن مشى : ذكر ذنبه فيحدث له انكساراً وتوبة واستغفاراً وندماً فيكون ذلك سبب نجاته .

فيكون الذّنب موجباً لترتّب طاعات ومعاملات وحسنات قلبيّة كخوف الله والحياء منه والإطراق بين يديه منكساً خجلاً مستقيلاً ربّه .

oooooooooooooooooooooooooooooo

فغذا أراد الله بالعبد المتكبّر المعجب بنفسه خيراً ألقاه في ذنب يكسره به ويعرفه قدره ويستخرج به منه داء العجب وابكبر ، كما قيل بلسان الحال في قصّة آدم وخروجه من الجنّة :

يا آدم لا تجزع من كأس زللٍ كانت سبب كيسِك فقد استُخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به وأُلبست حلّة العبوديّة .

يا آدم ، إنّما ابتليتك لأنّي أحبّ أن أظهر فضلي وجودي وكرمي على من عصاني .

يا آدم ، كنت تدخل عليّ دخول الملوك على الملوك ، واليوم تدخل عليّ دخول العبيد على الملوك .

يا آدم ، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذّنوب ، فعلى من أجود بحلمي ؟ وعلى من أجود بعفوي ومغفرتي وتوبتي وأنا التّوّاب الرّحيم ؟

ooooooooooooooooooooooooooooooo

يا آدم لا تجزع من قولي لك **اخرج منها** ، فلك خلقتها ، وما أهبطتك منها إلاّ لتتوسّل إليّ في الصّعود ، وما أخرجتك منها نفياً لك عنها ، ما أخرجتك منها إلاّ لتعود .

يا آدم ، ذنب تذلّ به لدينا أحبّ إلينا من طاعة تدلّ بها علينا .

يا آدم أنين المذنبين أحبّ إلينا من تسبيح المدلّين) (1).

وأخيراً فإنّ ذلك لا يدلّ على أنّ الله يحبّ الذّنب ويحبّ وقوع العبد فيه ، بل عليك الاجتهاد في الإقلاع عن المعصية ، وبذل كلّ سبب ممكن للتّوبة وترك الذّنب ، فإن لم توفّق فانظر لهذه المشاهد الّتي ذكرناها ، حتّى لا تقع في سوء الظّنّ بنفسك ولا بربّك عزّوجل.

---

(1) بتصرّف من مدارج السّالكين 1 / 325 ـ 327 .

لا تعجل بالهجرة

الهجرة هجرتان :

هجرة حسّيّة من أرض الكفر والمعصية إلى أرض الإيمان والطّاعة .

وهجرة معنويّة من حال الكفر والمعصية إلى حال الإيمان والطّاعة .

ولاشكّ أنّ البقاء في حال المعصية أمر مذموم في الشرع ، وأنّ العبد عليه المبادرة إلى الطّاعة والإقلاع عن المعصية على الفور دون تأخير .

لكن مع هذا ينبغي للمذنب أن يتوقّف هنيهة وقفة يراجع فيها عاقبة اختياره وفعله ، لأنّه قد يحسن تأخير الإقلاع الظّاهر عن المعصية لمصلحة راجحة ، كما أنّ

بعض الصّحابة تأخّرت هجرته إلى المدينة لمصلحة راجحة.

فبعض النّاس مثلاً يعمل في بنك ربوي ، فيستيقظ قلبه وينوي الإقلاع عن أكل الحرام والانتقال إلى عمل مباح طلباً لطيب الكسب ، غير أنّه يعجل بالاستقالة من عمله قبل أن يؤمّن مصدر رزق لعياله .

وهذا لا شكّ أنّه أمر طيّب ودليل على صدق التّوبة ، غير أنّا راينا من الأشخاص من ضاقت عليه الدّنيا خلال أشهر حيث لم يجد له عملاً [1]، فعاد إلى البنك

---

(1) الواجب على الدّعاة الابتعاد عن حالات التّشنّج والإغراق في العاطفيّة والمثاليّة ، فإنّ الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة في هذه الأيّام تختلف عن الأوضاع في السّابق ، فليس من السّهل الحصول على عمل يفي بلوازم الحياة ، أضف إلى ذلك طبيعة هذا التّائب ، فبعضهم من العوام الّذين لا علم عندهم أو فقه يبصرون به مقامات العبوديّة ولزوم الصّبر على ضنك المخالفة وشدّة ضغوط أوضاعهم الأسريّة والاجتماعيّة ، فالرّفق بهم أولى ومراعاة أحوالهم واجب ،

قبل أن يحول عليه الحول ، لكن هذه المرّة بنيّة البقاء الأبدي فيه وقد أقنع نفسه أنّ النّاس كلّهم يفعلون هذا! أو أنّ فعله بسبب الضّرورة حيث إنّه إن لم يعمل في البنك سيجوع هو وعياله !!

الّذي أحبّ قوله : أنّ النّاس في باب التّوبة درجات ، فليس كلّ النّاس لديه من الإيمان ما يمكّنه تحمّل قسوة العيش بعد أن يترك عمله في البنك ، فلا ينبغي للعبد أن يحمّل نفسه ما لا تحتمل .

فلا بأس إن تاب العبد بقلبه ونوى أن يترك البنك أن يظلّ فيه مع الاجتهاد القويّ في البحث عن مصدر رزق حلال ولو كان بأجر أقل يكفيه وعياله ، شريطة أن لا يتوسّع في استعمال راتبه في البنك بل ينفق قدر الضّرورة والباقي يتصدّق به أو ينفقه في باب برّ .

ولذلك لم يقبل النّبيّ ε من بعض الصّحابة تصدّقهم بكلّ مالهم كما قبل ذلك من أبي بكر رضي الله عنه.

ooooooooooooooooooooooooooooooo

لأنّه إن ترك هكذا سريعاً دون أن يؤمّن مصدراً آخر فلا يأمن الارتكاس وبقوّة أكبر ، خصوصاً إذا كان كثير العيال ، فإنّ الضّغوط الاقتصاديّة تجعل النّفس تضيق بدينها أحياناً وتنسيها إيّاه أحياناً أخرى .

وإذا كان العبد باقياً في البنك للحصول على ضروريّات حياته على أمل الحصول على مصدر شرعي لرزقه فهو إلى السّلامة إن شاء الله .

ودليل ما قلناه من سيرة النّبيّ ε ، فإنّه لم يكن يطلب من كلّ المسلمين في قبول إسلامهم أمراً واحداً ، بل كان يسهّل على من جاءه يريد التوبة ناوياً الخير ويقبل منه ما جاء به ، ويفتح له مجال الخير .

كما أنّه ε لم يطلب من كلّ المسلمين الهجرة ، فبعض النّاس حبسه أهله عنها ، وبعضهم حبسه عن

oooooooooooooooooooooooooooooo

الهجرة رعاية ماله ، وبعضهم رعاية أهله ، ولم يتعجلّ النّبيّ ع منهم الهجرة كلّهم بنفس الدّرجة .

وهذا الّذي ذكرته مثال على ترك بعض الذّنوب الّتي تحتمل من العبد البقاء عليها لمصلحة راجحة ، كالعمل في البنوك أو محلاّت الفيديو أو بيع الأشرطة الغنائيّة أو المطبوعات المشتملة على المنكرات ، أو محلاّت بيع الدّخان .

ولا يدخل فيما قلنا كبائر الذّنوب مثل الخمر والزّنا واللّواط وأكل الرّبا وعقوق الوالدين أو جرائم البغي والاعتداء كالقتل والسّحر وشهادة الزّور .

إنّما كلامنا في بعض الذّنوب ممّا له تعلّق بحياة الشّخص وضرورة عيشه ولها ارتباط وثيق به .

ويدخل في هذا من يعيش في وسط فاجر أو فاسق من أهله وعشيرته أو حيّه أو مدينته ، فيتوب الله عليه ،

فلا ينبغي له أن يتعجّل ترك هذا المكان حتّى يؤمّن مكاناً آخر يجد فيه قواماً من عيش .

فبعض الشّبيبة ما إن يمنّ الله عليه بالتّوبة حتّى يفكّر في ترك بيت أهله لما يجد من معاناة في التّمسّك أو في مشاهدة المنكر أمام عينه ، فإذا تعجّل ربّما لم يصبر على الحياة بعيداً عن جوّ العائلة الّذي تعوّد عليه فيعود أدراجه ويضعف إيمانه جدّاً .

والخلاصة ، أنّه إذا كانت المعصية لها تعلّق بحياة الشّخص العاديّة ، أو لها أثر بحياته وعيشه بعد التّوبة ، فعلى العبد أن يتمهّل في التّرك الظّاهر لها [1] حتّى ينظر في حاله بعد أن يترك ، ويوازن بين المصالح والمفاسد حتّى يكون تركه لها تركاً عن اقتناع كامل ورويّة تامّة ، وعلى قاعدة صلبه فلا يعود إليها أبداً .

---

(1) بمعنى وجوب التّوبة منها بالقلب فوراً والعزم على تركها .

ويشمل ما قلناه قاعدة ذكرها ابن القيّم في المدارج ، وهي أنّ العبد في توبته قد لا يتمكّن من الإقلاع عن الذّنب إلاّ بارتكاب مفسدة أو ذنب ، فلا بدّ أن يوازن بين المفسدة الّتي هو واقعٌ فيها وبين المفسدة المترتّبة على إقلاعه عن الذّنب .

فإذا طبّقت هذه القاعدة على ما قلناه سابقاً ، عرفت شمولها لكلّ ذنب ، وقد ذكر ابن القيّم صوراً افترضها ، وهناك في السّنّة ما يدلّ عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : (**جاء أعرابيّ فبال في طائفة المسجد فزجره النّاس فنهاهم النّبيّ ε وقال لا تزرموه ، فلمّا قضى بوله أمر بذنوب من ماء فأُهريق عليه**)[1]، ففيه دليل واضح على ما قلت من أنّ الإقلاع الذّنب إذا ترتّب عليه مفسدة أكبر منه لم يجب .

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب ح6025 ومسلم في الطّهارة ح284

oooooooooooooooooooooooooooooo

ولا يقدح في هذا أنّ الرّجل كان جاهلاً لأنّ المقصود أنّ النّبيّ ε لم ينكر استدامة الفعل المنهي عنه بل أمر بتركه لأنّ في قطعه مفسدة أكبر منه ، وهذه المفسدة قطعيّة أو مُحتملة ، وهي إمّا ضرر الرّجل بقطع بوله ولما ينته منه ، وإمّا بتنفيره من الدّين ويدلّ على هذه الأخيرة أنّ النّبيّ ε لما نهى الصّحابة قال لهم : (**إنّما بُعثتم ميسّرين**)(1).

(1) أخرجه البخاري في الطّهارة ح220 .

ابدأ من الذّنوب بأقلّها التزاماً له

بعض النّاس إذا أزمع على التّوبة والإقلاع عن المعاصي نظر في نفسه فبدأ بأشنع تلك الذّنوب مثلاً أو أعظمها وقعاً على نفسه ، وهذا خطأ ، بل الواجب أن يبدأ التّائب بالإقلاع عن أهون تلك الذّنوب وأقلّها تعلّقاً بنفسه، حتّى يتوافر بهمّته على الذّنب الّذي هو ألصق بنفسه وأكثر إدماناً له .

ولأنّه إذا جرّب الانتصار على نفسه في الذّنوب الّتي لا ميل له إليها قويّ ، كان ذلك دافعاً وحافزاً قويّاً له في مواجهة الذّنوب الّتي أدمنتها نفسه .

أمّا إذا بدأ بأشدّ تلك الذّنوب قرباً لنفسه فقد يخسر المعركة الأولى فيصيبه ذلك بالإحباط النّفسي ، وأمّا إذا

oooooooooooooooooooooooooooooooo

هزم بعد ترك الذّنوب الّتي لا ميل فيه إليها ثمّ لم يستطع ترك الذّنوب الأخرى فقد خرج على الأقلّ بأقلّ قدر من الخسائر ، وهذا من سياسة الحرب مع الذّنوب .

فمثلاً ، قد يكون المرء شارباً للخمر واقعاً في ال زّنا حالقاً لِلحيته مسبلاً ثوبه مدخّناً يقع في الغيبة والنّميمة.

لكنّ الزنا وحلق اللّحية والإسبال والغيبة والنّميمة أمور يفعلها دون ميل قويّ لها بل حسب ما يتّفق له فعلها فعل .

بعكس الخ مر والتّدخين فإنّها أمور أدمنتها نفسه ، فمن الخطأ هنا أن يبدأ بمواجهة نفسه في التّدخين مثلاً أو ا لخمر[1] ، بل يبدأ بالإقلاع عن ال زنا والغيبة ويعفي لحيته ويقصّر ثوبه ، فإذا فعل ذلك وتمكّن منه

---

(1) قد يستشنع البعض هذا الكلام ، لكن لا بدّ منه لأنّه يعالج واقعاً فلا بدّ من شيء من التّصريح والكلام الواقعي .

تفرّغ للمواجهة الأصعب ، مع التّدخين والخمر أكثر لأنّه أخطر وأعظم عند الله تعالى .

تماماً كرجل يواجه عدوّين أحدهما ضعيف والآخر قوي ، فإنّه إن بدأ بالقويّ لربّما هُزم فيبقى له عدوّان ، وإن بدأ بالضّعيف تغلّب عليه بسهولة ، ثمّ إن استطاع أن يغلب القويّ تمّ له النّصر ، وإن هُزم أمامه فقد تخلّص من عدوّ على الأقلّ وبقي عليه آخر .

و كذلك في الطّاعات ، نفس الكلام يُقال ، فإنّ الواجب على من اعتاد أن يترك المأمورات والفرائض أن يبدأ بما بدأ به الله ورسوله .

فمن كان تاركاً للصّوم والصّلاة والزّكاة وصلة الرّحم والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لا يحسن منه أن يبدأ بالاستعداد للحجّ قبل أن يتمسّك بحبل الصّلاة بقوّة ،

oooooooooooooooooooooooooooooooo

ولا أن يعجل على نفسه فيحمّلها الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر قبل أن يؤدّي فرض الصّوم والصّلاة .

بل الواجب على العبد التّائب أن يرتّب أولويّاته ، فأهمّ أمر ينبغي أن يقيّد نفسه القيام به وامتثاله والمحافظة عليه هو الصّلاة فإنّها ثاني أركان الإسلام وأهمّ واجب بإجماع الأمّة ، حتّى إنّهم اختلفوا في تاركها خاصّة هل يكفر أم لا ؟.

ثمّ بعد ذلك ينظر إلى الصّوم والزّكاة والحج ، ثمّ برّ الوالدين وبعد ذلك صلة الرّحم ، وهكذا .

أمّا أن يكلّف العبد نفسه السّفر لصلة رحم في بلد آخر وهو مازال مقصّراً في القيام بحقوق والديه فهذا من عدم الفقه في الدّين .

ويدلّ على ترتيب الأولويّات في العمل الصّالح أنّ النّبيّ ε جاءه رجل يريد الجهاد فقال له : **أحيّ والداك ؟ قال** : **نعم** ، **قال** : **ففيهما فجاهد** [1].

ومعناه أنّ الجهاد شُرع لفرض الحكم الإسلامي على الأرض ، وكلّ هدفه القيام بالحقوق الشّرعيّة ، فإذا كان القيام به فيه إهدار لحقّ شرعي أهمّ منه فلا معنى له ، فإذا ترك هذا الولد أبويه فمن يرعاهما ؟ مع أنّ الجهاد له من يقوم به غيره .

ولو تتبّعت بتأمّل التّدرّج الّذي وقع في المنهيّات والمأمورات للمست هذا الّذي ذكرناه بجلاء ، فالشّرع مثلاً بدأ بالنّهي عن أمور كانت الجاهليّة تعترف بقبحها كأكل الميتة ونكاح المحارم ووأد البنات وغير ذلك كثير ، ولكنّ تحريم الخمر تأخّر كثيراً ، لشدّة تعلّق العرب بها.

---

(1) أخرجه البخاري في الجهاد ح 3004 و مسلم في البرّ والصّلة ح2549 عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وأمر بأشياء كثيرة ربّما ليست في الأهمّيّة كبعض الفرائض ، لأنّ أهل الجاهليّة كانوا يقرّون بحسنها كمكارم الأخلاق مثلاً ، بينما تأخّر فرض بعض أركان الإسلام إلى ما بعد الهجرة كالحجّ والصّوم .

فلِم لم تنزل الشّريعة دفعة واحدة على النّاس ؟ إنّه مقتضى الرّحمة الإلهيّة لهذه الأمّة ، فلم لا يرحم أحدنا نفسه ؟.

ooooooooooooooooooooooooooooooo

صغّر ما صغّره الله وكبّر ما كبّره الله

لولا أنّ في ذلك فائدة ما قسّم الله الذّنوب إلى صغائر وكبائر ، فالحكمة أنّ الصّغائر أمر يكثر في البشر فجعله الله رحمة بهم من الصّغائر وتُكفّر بالعبادات بل باجتناب الكبائر ، وأمّا الكبائر فلا تمحوها إلاّ التّوبة لعظمها .

فلا يشغل طالب العلم أو الشّابّ نفسه بالعادة السّرّية مثلاً ، حتّى قد يجرّه ذلك إلى الهجرة من بلده وعقوق والديه وترك كثير من الخير رغبة منه في عدم التّعرّض للفتنة ، ثمّ هو أسهل ما عليه أن يقع في الغيبة؟.

ومع أنّ مسألة كبر الذّنب وصغره في عين الفاعل أمر يرجع إلى قوّة الإيمان ، فإذا قوي الإيمان كبر عليه الذّنب

وإذا ضعف صغر عليه ، فهو أثر للإيمان ، لا أنّ ذلك يفعله الفاعل نفسه ، ولا أنّ ذلك راجع للفعل نفسه .

على أنّه من الحكمة أن لا يحمّل العبد نفسه همّ ذنب صغير أكبر من قدره ، كما أنّه لا ينبغي أن يتساهل بذنب كبير ويتعامل معه أقلّ من قدره ، بل ينظر لكلّ ذنب بحسب نظر الشّرع إليه .

فإذا كان الرّجل يقع في الزّنا مثلاً ، ونفسه توّاقة إليه لا ترعوي إلاّ بأن يهاجر من بلده إلى بلد لا فتنة فيه أو تقلّ ، فهنا يسوغ له هذا الهجر مع ما قد ينطوي عيه من الألم لفراق الأهل والوطن .

أمّا أن يهجر العبد بلده لأنّه لا يستطيع كفّ بصره عن النّساء غير أنّه يعرف من نفسه أنّه لا يصل به الحال إلى الزّنا ، فهذا غير منطقي أبداً ، لأنّ إطلاق البصر لن يتغيّر حتّى لو ترك بلده ، ثمّ إنّه بذلك يطلب أن يكون

ooooooooooooooooooooooooooooooo

منزّهاً عن الخطأ وهو عين الخطأ ، لأنّه وإن سلم من إطلاق البصر في مكان آخر فلن يسلم من ذنوب أخر قد تكون في المكان الّذي ذهب إليه .

بل في هذه الحال عليه أن يكثر الاستغفار والتّوبة وإن تكرّرت منه الصّغيرة ، وما شرع الله كثرة الاستغفار والتّوبة إلاّ لعلمه سبحانه أنّ ابن آدم لا ينفكّ البتّة من ذنوب صغار لا يملك نفسه أمامها ، وإن كان لا يبحث عنها ، وهذا أمرٌ طبيعي في المؤمن ليس من علامات النّفاق ولا الفسق ، وإذا كان ديدن العبد الاستغفار والتّوبة فلن تضرّه الذّنوب إن شاء الله تعالى ، وهذا مقتضى النّصّ من كتاب الله وسنّة رسوله ε .

oooooooooooooooooooooooooooooo

لا تجاهر

من القواعد الشّرعيّة المهمّة ، أنّ الذّنب قد يعظم وهو من الصّغائر بسبب ما يقترن بحال فاعله من الأمور الّتي تزيد من جرمه .

وأنّ الذّنب قد يصغر وهو عظيم بحسب ما يقترن بحال صاحبه من الأمور الّتي تخفّف من جرمه .

والمثال يوضح المقال : فالنّظر للنّساء مع أنّه صغيرة إلاّ أنّه يعظم إذا اقترن به تبجّح النّاظر بالمجاهرة به واستحسانه والإصرار عليه وطلبه والبحث عنه .

والزّنا عظيم إلاّ أنّه قد يصغر إذا اقترن فعله باستتار صاحبه ووقوعه فيه دون بحث عنه ومع الاستغفار منه والتّوبة .

oooooooooooooooooooooooooooooo

إذا عُرف هذ ا فإنّ من أعظم ما يعظم الذّنب عند الله تعالى اقترانه بعدم الحياء منه عزّوجل ، إذا أنّ ذلك يتضمّن الاستخفاف به وبأمره وبوعده ووعيده وهو من أكبر الجرائم القلبيّة الّتي قد تنطوي عليها الضّمائر .

ومن أمارات قلّة الحياء من الله تعالى المجاهرة بالمعصية أمام الخلق ، فهو إشارةٌ للاستخفاف ، وهو أيضاً مؤشّرٌ خطير على استحلال الفاعل للمعصية ممّا يعني خروجه من الملّة ربّما .

وقد قال ε:

(كلّ أمّتي مُعافى إلاّ المجاهرين ، وإنّ من المجاهرة أن يستر الله عليه ثمّ يصبح يكشف ستر الله عنه يقول : يا فلان فعلت البارحة كذا وك ذا ، فيبيت ربّه يستره ويصبح يكشف ستر الله عن نفسه

oooooooooooooooooooooooooooooo

)[1] وفي هذا أنّ المجاهرة هي فعل المنكر أمام النّاس ، وكذلك فعله سراً ثمّ الإخبار به دون ندم.

وفي الحديث معنى لطيف ! إذ أنّ المجاهر بالمعصية لا يفعل ذلك إلاّ لعدم إحساسه بقبح فعله ، وإذا كان كذلك فهوكالمريض الّذي لا يحسّ بمرضه فهو لا يطلب له دواء ، أو هو يرى مرضه عافية ، كمن يحسب الشّحم فيمن شحمه ورم ، فكيف يُعافى مريض لا يطلب عافية ، أويرى مرضه عين العافية ؟

ومن هنا فالواجب على المؤمن إذا ابتُلي بشيء من الذّنوب أن يستتر بها وأن لا يجاهر فيكون كالمبارز لله تعالى، قال ε :

(من ابتُلي من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله)[2].

---

(1) أخرجه البحاري في الأدب ح6069 ومسلم في الزّهد ح299 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ولأنّ الاستتار يعقب العافية من وجهين :

الأوّل : أنّه إذا أراد التّوبة لم يخجل من نظر الخلق إليه لأنّه عصى سرّاً وتاب سراً ، فلا يدري عنه إلاّ الله ، وأمّا إذا عصى جهاراً فإنّ الشّيطان يصعّب عليه التّوبة ويعظّم في عينه نظر الخلق إليه وخصوصاً رفقاء المعصية الّذين سيتهكّمون به وسيحسب لكلامهم ألف حساب ممّا يجعل التّوبة عليه أصعب مرّات عديدة ممّا لو استتر بالمعصية .

والثّاني : أنّ الاستتار دليل على استقباح العاصي لفعله ، فمع أنّ فعل الذّنب دليلٌ على مرض القلب ولاشكّ ، غير أنّ المجاهرة دليل على موت القلب فهو لا يستقبح المعصية فلذلك يجاهر بها لأنّه لم يعد فيه حياة يميّز بها بين الحسن والقبيح .

---

(1) أخرجه مالك في الموطّأ ح 1562وصحّحه الألباني في الصّحيحة ح663 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

واستقباح العاصي لمعصيته ونظره لها بعين النّقص هو أوّل خطوة في طريق العلاج ، لأنّ المريض إذا أحسّ فعلاً بمرضه دفعه ذلك إلى البحث عن الدّواء ، يدلّ على ذلك ما روي عنه ε أنّه قال : (**من سرّته حسنته وساءته سيّئته فهو مؤمن)** [1]، والمستتر بجرمه إذا فعله لأنّ ذلك يسوؤه فذلك دليل العافية إن شاء الله تعالى .

سؤال مهم :

إن قال قائل : لكنّ الله تعالى ذمّ الّذين يستسرّون بالمعصية فقال :

{ إنّ الله لا يحبّ من كان خوّاناً أثيماً يستخفون من النّاس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول } [النّساء :107.108].

وقال ε :

(1) أخرجه أحمد ح 115 ، 15269 ، والتّرمذي في الفتن ح216.

ooooooooooooooooooooooooooooooo

(**لأعلمن أقواما من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضا فيجعلها الله عز وجل هباء منثورا قال ثوبان يا رسول الله صفهم لنا جلهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم قال أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**)[1] ففي النّصّين ذمّ من استتر عن أعين النّاس بمعصيته .

فالجواب من أوجه :

أوّلاً: أنّه يجب أن تعلم قطعاً أنّ هذه الآية وما في معناها تذمّ العاصي من حيث أنّه لم يستحِ من الله ، أو لأنّه استحيا من الخلق أكثر من الخالق ، لكنّها قطعاً لا

---

(1) أخرجه ابن ماجة في الزّهد ح 4245 ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع برقم 5028 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

تأمر هذا العاصي بالمجاهرة بالمعصية لأنّ في ذلك عدم الحياء لا من الخلق ولا من الخالق وهذا أشدّ قبحاً ، **والشّارِع أتى بتخفيف المفسدة إن لم يمكن إزالتها .**

ثانياً : أنّ هذه الآية وما في معناها يُقصد بها أحد صنفين : إمّا المنافقون الّذين لا يجاهرون بكفرهم ومعاصيهم لخوفهم من النّاس ويستترون منهم لأنّهم لا يؤمنون بوعد ولا وعيد فهذا توبيخٌ لهم لأنّهم لا يرجون لله وقاراً .

وإمّا المراؤون الّذين يستسرّون بالمعصية حفاظاً على جاههم أو دنياهم أو خوفاً من السّلطان فهم يستسرّون بالمعصية إظهاراً للدّين والتّقوى والورع بينما لا يصاحبهم في حال معصيتهم خوف ولا وجل من الله ولا حياء ولا فكر في ذنوبهم هذه ولهذا عبّر عن ε عن فعالهم بأنّه انتهاك ، ففيه نوع تغليظ لفعلهم .

oooooooooooooooooooooooooooooo

وأمّا المؤمن الّذي يقع في الذّنب ويخفيه فإنّ قصده صحيح وهو ممتثل للشّرع ، قال الغزالي رحمه الله تعالى : (ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطّلاع النّاس عليها ، لا سيّما ما تختلج به الخواطر في الشّهوات والأماني ، والله مطّلعٌ على جميع ذلك ، فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربّما يظنّ أنّه رياء محظور ، وليس كذلك ، بل المحظور أنّه يستر ذلك ليري النّاس أنّه ورع خائف من الله تعالى مع أنّه ليس كذلك ، فهذا ستر المرائي ، وأمّا الصّادق الّذي لا يرائي فله ستر المعاصي ويصحّ قصده فيه ويصحّ اغتمامه باطّلاع النّاس عليه من ثمانية أوجه :

أوّلها : أن يفرح بستر الله عليه وإذا افتضح اغتمّ بهتك ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة وهذا غمٌّ ينشأ من قوّة الإيمان .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ثانيها : أنّه قد علم أنّ الله يكره ظهور المعاصي ويحبّ سترها فهو وإن عصى الله بالذّنب فلم يخل قلبه من محبّة ما أحبّ الله ، وهذا ينشأ من قوّة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصي ،وأثر الصّدق فيه أن يكره ظهور الذّنب من غيره أيضاً ويغتمّ بسببه .

ثالثها : أن يكره ذمّ النّاس له به من حيث أنّ ذلك يغمّه ويشغل قلبه عن الطّاعة .

رابعها : أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذمّ النّاس من حيث يتأذّى طبعه ، فإنّ الذّمّ مؤلمٌ كما أنّ الضّرب مؤلم وخوف تألّم القلب بالذّمّ ليس بحرام ولا الإنسان به عاصٍ.

خامسها : أن يكره الذّمّ من حيث أنّ الذّمّ قد عُصي الله به وهذا من الإيمان وعلامته أن يكره ذمّه لغيره أيضاً .

oooooooooooooooooooooooooooooo

سادسها : أن يستر ذلك كيلا يُقصد بشرّ إذا عُرف ذنبه .

سابعها : مجرّد الحياء ، وهو خلقٌ كريم ، فالّذي يفسق ولا يبالي أن يظهر فسقه للنّاس جمع إلى التّهتّك والوقاحة فقد الحياء فهو أشدّ حالاً ممّن يستتر ويستحي ، إلاّ أنّ الحياء ممتزج بالرّياء ومشتبه به اشتباهاً عظيماً .

ثامنها : أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به ، ويختصّ ذلك بالأئمّة ومن يُقتدى بهم ، وبهذه العلّة أيضاً ينبغي أن يخفي العاصي أيضاً معصيته من أهله وولده لأنّهم يتعلّمون منه)[1].

فظهر بهذا أنّ الاستسرار بالمعصية ليس فيه أيّ مأخذٍ شرعي ، وأنّ النّصوص الواردة في حقّ من يعصي في السّر إنّما وردت فيمن قصده في إخفاء المعصية الرّياء

(1) باختصار من إحياء علوم الدّين 4 / 113 ـ 115 .

والخوف على دنياه ، وأمّا بالمقاصد الثّمانية المذكورة بعلاماتها سابقاً فالسّتر واجب وهو محمودٌ شرعاً وعقلاً .

وحيلة الشّيطان في هذا الباب أنّه يجرّىء العبد على المجاهرة بالمعصية من باب الإخلاص واستواء السّرّ بالعلانية وهذا خطأ لما قد عرّفتك سابقاً من أنّ الاستسرار لا ينافي الإخلاص .

كما أنّ الاستسرار بالمعصية هو عين العقل ، وهو دليل صحّة ، ولذلك قال ابن الجوزي : (إذا رأيت قليل العقل فلا ترج خيره ، وأمّا من كان وافر العقل لكن يغلب عليه الهوى فارجُه ، وعلامة ذلك أنّه يدبّر أمره في جهله[1] فيستتر من النّاس إذا أتى فاحشة ، ويراقب في بعض الأحوال ، ويبكي عند الموعظة ، ويحترم أهل الدّين

(1) أي حين يجرّه هواه إلى المعصية .

، فهذا عاقل مغلوب بالهوى ، فإذا انتبه بالنّدم خنس شيطان الهوى وجاء ملك العقل)[1].

على أنّ الكمال لا يكون بإفساد ظاهرك ليستوي مع باطنك ، وإنّما إذا أردت تحصيل الإخلاص فاسع في إصلاح باطنك ليوافق ظاهرك فإن لم تستطع فإنّه ذلك أخفّ ضرراً من أن يفسد ظاهرك وباطنك .

---

(1) صيد الخاطر ص361 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

أعمال القلوب أدوية تحتاج إلى طبيب

[ساعة وساعة] : الخوف والرّجاء ، والرّغبة والرّهبة ، والشّوق والمحبّة ، والذّكر والغفلة ونحو ذلك من أعمال القلوب كلّها أدوية تحتاج إلى طبيب يحسن وصف الدّاء للعلّة الحادثة.

وهذا الطّبيب لا بدّ أن يكون عارفاً بالدّاء وموضعه ، عارفاً بالدّواء وكمّيّته وطريقة استعماله .

فإذا كان الدّاء هو الغفلة احتاج إلى الذّكر ، وإذا كان الدّاء هو ملل النّفس من موالاة الذّكر احتاج إلى شيء من الرّاحة والسّلوان .

وإذا كان الدّاء هو غلبة الخوف احتاج إلى الرّجاء ، وإذا كان الدّاء غلبة الرّجاء احتاج الخوف .

oooooooooooooooooooooooooooooo

وعليه فلابدّ أن تعرف الدّاء الّذي غلب عليك وأن تحسن علاج نفسك .

وإنّ من أعظم الضّرر أن يرى الإنسان داء نفسه دواءً ، وأن يحسب المرض عافية ، وكلّ ذلك بسبب قلّة العلم والفقه في دين الله .

فبعض النّاس يعتقد أنّ الإيمان والسّلامة تكون في جانب الخوف ، حتّى يقطعه الخوف عن كثير من المباحات ، بل وقد يخرجه إلى السّقم والوسوسة وقد يصل به إلى القنوط ، فهذا الخوف في الحقيقة مرضٌ وليس بعافية ، فإذا كان المرء فقيهاً في نفسه عرف أنّ الخوف بهذا الشّكل قد يودي به إلى عاقبة سوء ، فعالج نفسه بشيءٍ من الرّجاء والتّسلية والتّوسّع في المباحات حتّى يعادل ميزان السّلوك في نفسه .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وإنّ العبد العاقل يعرف الأحوال والمواطن الّتي يصلح لها كلّ عمل من هذه الأعمال ، ففي ساعات الغفلة يحتاج إلى الذّكر ، وفي ساعات الرّجاء يحتاج إلى الخوف وفي ساعات الخوف يحتاج إلى الرّجاء ، ولا يجعل أيّامه كلّها على وتيرة واحدة لأنّ النّفس لا تسير عليها دائماً .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ε على شابٍّ وهو في الموت فقال : (**كيف تجدك ؟ قال : يارسول الله والله إنّي أرجو الله وأخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ε : لايجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله مايرجو وأمّنه مما يخاف**)[2].

---

(2) أخرجه التّرمذي كتاب الجنائز ح983 ، وابن ماجة في الزّهد باب ذِكر الموت والاستعداد له عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وقال ε :

(**لايموتنّ أحدُكم إلاّ وهو يحسن الظنّ بالله**) [3] .

وقد يَحسُن في بعض المواطن تغليبُ أحد الجانبين ، كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : (إذا رأيتم الرجل بالموت فبشّروه ليلقى ربه وهو حسن الظن به ، وإذا كان حياً فخوفوه بربه عز وجل)[4] .

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله : (ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحداً) [5]، وقال الكرمان: (إنّ المكلّف ينبغي له أن يكون بين الخوف والرّجاء ، حتى لايكون مفْرِطاً في الرّجاء ولافي الخوف ، بل يكون وسطاً

---

(3) أخرجه مسلم في صفة الجنّة ونعيمهاح2877 .

(4) شرح السّنّة للبغوي 5 / 275 .

(5) مسائل ابن هانيء 2 / 178 .

oooooooooooooooooooooooooooooooo

بينهما كما قال تعالى: { **يرجون رحمته ويخافون عذابه**}) [6] .

والخوف هو: هرب القلب واضطرابه من حلول المكروه عند استشعاره [1] ، والمراد بالخوف هنا هو الخوف المحمود وهو ماحال بين صاحبه وبين محارم الله فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط [2] .

وأمّا الرّجاء فهو الطّمع في رحمة الله تعالى مع الاجتهاد في العمل ،كما قال تعالى : { **إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله** } [البقرة : 218] وهو خلاف التمنّي ، إذ التمنّي : الطمعُ في رحمة الله مع الكسل والتّواني وهو مذموم .

---

(6) فتح الباري 11 / 302 بتصرّف .

(1) انظر تعريفات العلماء للخوف في مدارج السّالكين 1 / 549 .

(2) مدارج السّالكين 1 / 551 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ولذلك فقد أجمع العلماء أن الرّجاء لايصحّ إلا مع العمل [4] .

(والرّجاء ثلاثة أنواع فنوعان محمودان ونوع مذموم : فأمّا المحمودان : فرجل عمل بطاعة الله يرجو ثواب الله ، ورجل أذنب ذنوباً فتاب منها واستغفر فهو يرجو مغفرة الله ، وأمّا المذموم ، فرجل متمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب) [1] .

قال ابن القيم : (القلب في سيره إلى الله عزّ وجلّ بمنزلة الطّائر فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيّد الطيران) [2] .

---

(4) مدارج السّالكين 2 / 37 .

(1) مدارج السّالكين 2 / 37 .

(2) مدارج السّالكين 1 / 554 .

oooooooooooooooooooooooooooooooo

وهذا الباب نافعٌ للعبد في ت نويع ثقافته من حيث السّماع والقراءة ، وأضرب لك مثلاً ، فأنت إذا صعدت سيّارة بعض النّاس وجدت كافّة الأشرطة السّمعيّة تدور حول الزّهد وذكر الموت ونهاية الدّني ا والتّقلّل منها وذكر النّار وفظائع القيامة ، وحتّى القرآن يحرص على أن تكون لمقاطع يختلط فيها صوت القارىء بالنّشيج والنّواح .

وتصعد سيّارة آخر فتجد الأشرطة كلّها تتحدّث عن الجنّة وعن رحمة الله والرّجاء أو أشرطة فكريّة وعلميّة يقسو منها القلب ، وكذلك أشرطة الأناشيد في الوصف أو الجهاد .

والوسط خير ، فالواجب على الكيّس أن يكون عنده من الجميع ، فإذا رأى من نفسه غفلة سمع القرآن بكثرة وذكّر نفسه بمواعظ الموت والزّهد والنّار .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وإذا رأى من نفسه قنوطاً أو خوفاً ينفّر النّفس روّح عنها بالأناشيد الأسلاميّة ، والقصائد الجميلة ونحو ذلك ممّا تميل إليه النّفس .

وهكذا تمضي حياة المؤمن لا على وتيرة واحدة ، فالغفلة مكروهة والإفراط في الحزن وتكلّفه منهيّ عنه كما ذكر النّبيّ ذلك لحنظلة (**ساعة وساعة**) , ذلك شيخ الإسلام وغيره .

oooooooooooooooooooooooooooooo

دافع نفسك

ومن السّياسة للنّفس مداراتها ومعرفة احتياجاتها ونقاط ضعفها ، والرّفق بها حين تحتاج الرّفق ، والحمل عليها حين ينفعها الحمل .

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه : (إنّ للقلوب شهوة وإقبالاً وإنّ للقلوب فترة وإدباراً فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها ، ودعوها عند فترتها وإدبارها)[1].

وإنّ السّياسة الحقّة ليست في معرفة الخير من الشّر ، فذلك أمر يحسنه أكثر النّاس ، إنّما السّياسة أن تعرف أحبّ الخيرين إلى الله فتقدّمه ، وأبغض الشّرّين إلى الله فتدفعه بالأدنى .

---

(1) الحلية لأبي نعيم 1 / 134 .

ومن هنا وجب على المؤمن معرفة أحوال نفسه ، فإذا دبّ إليها الملل تركها وخلّى بينها وبين المباحات ، وإن شعر بنشاط حملها على العبادة والعمل والعلم .

وإذا سنحت له فرصة القيام بعمل فلينظر أحبّ العمل وأنسبه لنفسه ممّا يتقنه وتميل نفسه إليه ، فإن كان محبّاً للصّلاة صلّى ، وإن كانت نفسه محبّة للصّوم أطلقها فيه ، وإن كان توّاقاً للجهاد نفر ، وإن كان محبّاً للعلم تعلّم وهكذا .

وحتّى في جانب الوقاية من الذّنوب ، يسوغ له مدافعة نفسه ، بل إنّه قد يجوز له أحياناً فعل الذّنب ليدفع ذنباً أكبر ، كما نصّ كثير من العلماء على جواز الاستمناء إذا خاف على نفسه الزّنا [1].

---

(1) خوفاً حقيقياً لا مجرّد الوهم !

oooooooooooooooooooooooooooooo

وإذا تردّد الأمر بين أن يقع في المعصية وبين أن يشتغل بها الأيّام لاهو بالّذي فعلها ولا هو بالّذي انصرف عنها فقد يجوز أن يقع في المعصية لينصرف عنها ، فإنّ المعروف أنّ كثيراً من النّفوس تتوق لفعل المعصية من باب الفضول والتّعرّف ، فإذا جرّبتها نفرت عنها ، ولا شكّ أن تضييع الأيّام في التّفكير في معصية . وقد يورث ذلك تثاقلاً عن الطّاعة وكرهاً لها . لا شكّ أنّ ضرره ومفسدته على المرء أكبر من مفسدة الوقوع في المعصية .

على أنّي لا أقصد بذلك الوقوع في الكبائر لأنّ أمرها يختلف ، وإنّما أقصد الصّغائر والذّنوب الّتي تخفّ مفسدتها عن مفسدة الانشغال بها ، والعاقل الفقيه من يستطيع أن يميّز بين المفاسد ويوازن بينها ويعرف نفسه وما تحتاج .

وذلك بلا شك لا يعني أنّه لا يأثم في فعل المعصية ، بل المراد أنّ هذا الإثم أقلّ مفسدة من إثم تضييع الوقت والانشغال بالتّأمّل في المعصية وتمنّيها وترك الواجبات ربّما بسبب ذلك .

ومن هذا الباب ورد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قوله : أشتري ديني بعضه ببعض ، بل إنّه رضي الله عنه عمّ أصحاب النّبيّ ε بهذه القاعدة [1].

فهذا تعبير صحيح للمسألة الّتي نحن فيها ، فإنّ العبد قد يحسن منه أن يضحّي بشيء من دينه ليسلم له الباقي.

غير أنّ ذلك كما قلنا يحتاج إلى إخلاص من العبد وصدق بينه وبين الله ومعرفة بالمفاسد والمصالح صغيرها وكبيرها ، حتّى لا يضحّي بالأهمّ من دينه في سبيل ما

---

(1) سير أعلام النّبلاء 368/2 وحلية الأولياء 1 / 279 .

هو أقلّ أهمّيّة ، كما تقدّم معنا أنّ بعض النّاس يقاوم نفسه في ترك الاستمناء لكنّه ينشغل في مدافعة نفسه عنه فيقع في كثرة التّفكّر في النّساء والتّأمّل فتضيع أوقاته لا في طاعة ولا في خير ، مع أنّه لو استمنى انصرفت نفسه لوقت طويل عن الفكر في المعصية وربّما كان في هذا الانصراف خير يعينه في الإقلاع عنها بالمرّة .

هذا نقوله إن لم يكن بالمرء قوّة على الخلوة بنفسه والانقطاع للعبادة والعلم ، أو إشغال النّفس ببعض الأمور الّتي تستهلك الطّاقة كالرّياضة المفيدة والقراءة العامّة ، فذلك خير وأنفع .

وقد يستغرب البعض مثل هذا الكلام ، وليس فيه ما يدعو لذلك ، لأنّه ليس دعوةً للوقوع في الذّنب معاذ الله تعالى ، وإنّما اجتهاد في الحفاظ على أكبر قدر من الكسب في صالح الآخرة ، وهذا قد يضطرّ المؤمن أحياناً للوقوع في الذّنب .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وهذا الأمر فيه شبه كبير بفقه الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، والعبد يعامل نفسه كما يعامل غيره من النّاس ، فيأمرها وينهاها ويعظها .

فكما أنّ النّاس يحتاجون إلى فقه في معاملتهم ، ويحتاجون إلى مداراة ، فكذلك النّفس تحتاج إلى فقه في معاملتها ومداراة ، وهي كالطّفل إن دلّلته أفسدته وإن قسوت عليه أضعته ، والوسط خير ، كما قيل :

ووضع النّدى موضع السّيف بالفتى

مضرٌّ كوضع السّيف موضع النّدى

وتأمّل معي قصّة لوط مع قومه السّوء لما جاؤوه يريدون السّوء بضيوفه وهم من الملائكة لكنّه لم يعرف هو وقومه ذلك ، والّذي يريده قومه من ضيوفه خزي وعار وذنب عظيم ، فما كان من لوط إذ يأس من نهيهم إلاّ أن عرض عليهم بناته ، وقد اختلف العلماء في

الغرض من هذا العرض ، فقال بعضهم عرض عليهم الوقوع بهنّ بدلاً عن ضيوفه ، وبعضهم قال إنّه عرض عليهنّ الزّواج منهنّ ، وقال بعضهم المقصود ببناته بناته من صلبه ، وقيل بل المراد نساء المؤمنين فإنّ النّبيّ أبٌ لهنّ كما أنّ أزواجه أمّهات المؤمنين .

وعلى جميع الأقوال السّابقة فإنّ صلة البنات بهؤلاء اللّوطيّة مفسدة ، فإنّ زواجهنّ بهم وهو أخفّ الضّرر لا يجوز لأنّهم قوم سوء ، فلماذا لجأ إليه لوط عليه السّلام ؟.

الجواب : لأنّ في ذلك دفعاً لمفسدة أعظم بكثير وهو وقوع هؤلاء الخبثاء بضيوفه في فعل شائن تهتزّ له أركان الأرض كما تهتزّ أركان النّفس .

وكذلك النّفس قد تهيج بصاحبها وتندفع اندفاعاً لا يملك أمامها إلاّ خيارين : إمّا التّخلية بينها وبين الذّنب.

oooooooooooooooooooooooooooooo

وإمّا مساومتها لترضى بما هو أقلّ ضرراً عليها ممّا يصرفها عن قصدها الأوّل .

ولا أشكّ أنّ الخيار الثّاني هو عين الفقه ، كما أنّ الحزم بالمنع المطلق هو الخير المحض إن كان إليه سبيل .

وإن كان عجبك لم يزل فإنّي أنقل لك فتوى تدخل ضمن هذا الأصل ، وهي من فتاوى الإمام ابن القيّم رحمه الله تعالى في روضة المحبّين ، فقد ذكر عن نصر بن حجّاج أنّه لما خرج إلى الكوفة كان يدخل على مجاشع بن مسعود ، وكانت له امرأة جميلة فأعجبها نصر ، فكتب لها نصر في الأرض كتاباً فقالت : وأنا ، فعلم مجاشع أنها جواب كلام ، وكان مجاشع لا يكتب والمرأة تكتب ، فدعا بإناء فأكفأه على المكتوب ودعا كاتباً فقرأه فإذا هو : إني لأحبك حباً لو كان فوقك لأظلّك ولو كان تحتك لأقلّك ، وبلغ نصراً ما صنع مجاشع فاستحيا ولزم بيته وضني جسمه حتى كان كالفرخ ، فقال

مجاشع لامرأته : اذهبي إليه فأسنديه إلى صدرك وأطعميه الطّعام بيدك ، فأبت ، فعزم عليها فأتته ففعلت ما أمرها به مجاشع ، فلمّا تحامل خرج من البصرة .

فإن قيل : فهل تبيح الشّريعة مثل ذلك ؟ قيل : إذا تعيّن طريقاً للدّواء ونجاة العبد من الهلكة لم يكن بأعظم من مداواة المرأة للرّجل الأجنبي ومداواته لها ، ونظر الطّبيب إلى بدن المريض ومسّه بيده للحاجة ، وأمّا التّداوي بالجماع فلا يبيحه الشّرع بحال ، وأمّا التّداوي بالضّمّ والقبلة فإن تحقّق الشّفاء به كان نظير التّداوي بالخمر عند من يبيحه ، بل هذا أسهل من التّداوي بالخمر فإنّ شربه من الكبائر ، وهذ الفعل من الصغائر)[1] .

---

(1) روضة المحبّين ص383 .

لا تجعل الذّنب عائقاً لك عن الإنتاج

فليس من شرط قبول العمل السّلامة من الذّنوب .

هذه القاعدة فقهها أصحاب رسول الله ε ، فلذلك لا تجد بينهم من ينتقص عمل الآخر بذنبه أو بتقصيره في نواحٍ أخرى[1] ، بل الإنتاج والعمل مطلوب من أيّ شخص ، حتّى إنّ الله تعالى يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر كما ثبت في الصّحيح .

---

(1) فمن عجائب الفقه في زماننا هذا أنّنا نرفض ونقلّل من شأن العمل الخيري ممّن نرى فيهم نقصاً أة تقصيراً في نواحٍ معيّنة ، كحلق اللّحية أو إسبال الثّوب أو ما شابه ذلك ، وهذا لا يتّفق مع السّنّة وفعل السّلف .

oooooooooooooooooooooooooooooo

وعليه فربّما ابتلاك الله بذنب قد لا تتمكّن من تركه بعد المجاهدة والمحاولة ، فلا يكن شغلك بهذا الذّنب مثبّطاً لك وعائقاً عن العمل والإنتاج ، بل إنّ الانشغال بالعمل والإنتاج قد يكون هو وسيلتك النّاجحة للتّخلّص من الذّنب أو تخفيف وطأته على النّفس .

والمقصود أن لا تجعل من الذّنب سكّيناً يقطع صلتك بالله وبدينه وبالإسلام وأهله ، بل لابدّ أن يستمرّ ولاؤك لله ولدينه وللمسلمين .

كما ولا تجعل من الذّنب وسيلة لهدم معنويّات نفسك وصدّها عن فعل الخير في أيّ مجال ، فبعض النّاس يعتقد أنّ الوسيلة للتّخلّص من الألم الّذي يسبّبه وقوع النّفس في الذّنب هو تبكيتها وتحقيرها وازدراؤها كلّما همّت بعمل خير من باب لوم النّفس ونقد الذّات ، لكن ما هكذا يا سعد تُورد الإبل !!

oooooooooooooooooooooooooooooooo

ومن جميل هذا المعنى أنّ النّبيّ ε قال للرّجال :

(**لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر**)[1].

والنّفس أولى بهذا التّعامل ، فإن كان في نفسك ضعفٌ أمام شهوة مّا فلربّما كان فيها طاقات لعمل خير آخر يقرّبك من الله مسافات أقرب بكثير ممّا باعدتك منه المعصية، فهذا أبو محجن الثّقفي أتعب سعداً لكثرة ما يجلده في الخمر ، لم يكن ذلك مانعاً له أن يبرز في الكرّ والفرّ والتّضحية والفدائيّة ، حتّى أعجب سعد بفعله وأحلّ قيده بيده وقال : قم لا جلدتك بعد اليوم .[2]

بل وأجمل منه التّصريح القرآني بأنّ الوقوع في الذّنوب لا يلزم منه الإعراض عن الخيرات فقد قال عزّوجل :

---

(1) أخرجه مسلم في الرضاع ح 1469 .

(2) انظر القصّة في مصنّف عبدالرزاق17077 والإصابة 173/4 .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

{ سارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السّماوات والأرض أُعدّت للمتّقين الّذين ينفقون في السّرّاء والضّرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس والله يحبّ المحسنين والّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذّنوب إلاّ الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون } [آل عمران : 133-135] ، فأنت ترى أنّه وصف المتّقين بفعل الخير ، ولم يقل بأنّهم لا يقعون في الذّنوب ، بل وصفهم بأنّهم قد يقعون في الفواحش وهي ما غلظ وعظم من الذّنوب ، لكنّ وصفهم أنّهم إذا وقعوا فيه بدافع الضّعف البشري ذكروا الله وتابوا عنها ولم يصرّوا على ذلك ، فهل من مدّكر ؟.

اجعل من الذّنب نعمة

ooooooooooooooooooooooooooooooo

هل يمكن أن تكون المصيبة نعمة ؟ وهل يمكن أن تعود السّيّئة حسنة ؟

إنّ المؤمن يستطيع أن يجعل من كلّ ذنب يذنبه نعمة عليه ، وأن يقلب سيّئته إلى حسنة دوماً ، فكيف ذلك؟

إذا تعوّد العبد أن يتوب المرّة بعد المرّة من ذنوبه فقد وعده الله تعالى أن يبدّل سيّئاته حسنات ، قال تعالى :

{ والّذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النّفس الّتي حرّم الله إلاّ بالحقّ ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلاّ من تاب وآمن وعمل عم لاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً } [الفرقان : 70.68] ، وهذا الوعد الإلهي لم ولن يزال قائماً إلى قيام السّاعة .

oooooooooooooooooooooooooooooo

فالتّوبة وإتباعها بالعمل الصّالح سببٌ لقلب السّيّئات حسنات في الوزن يوم القيامة .

بل وقد تتحوّل المصيبة نعمة وارفة الظّلال ، فكم عبد كان غافلاً عن حاله وبعده عن ربّه أيقظه ذنبٌ أحرقت حرارته قلبه فاستيقظ من نومه وانتبه من غفلته وراجع نفسه وحاسبها وأبصر حقيقة سيره فعاد أدراجه ورجع إلى ربّه وآب إليه ، فعاد سهم إبليس القاتل الّذي أرسله على العاصي بلسماً وترياقاً ، ومن أروع الأمثلة الّتي تصوّر ما قلته قصّة الكفل الّتي ذكرها النّبيّ ε : (**كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال ما يبكيك أكرهتك قالت لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط وإنما حملني عليه الحاجة قال فتفعلين هذا ولم تفعليه قط قال ثم نزل فقال اذهبي فالدنانير**

oooooooooooooooooooooooooooooo

لك ثم قال والله لا يعصي الله الكفل أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه قد غفر الله عز وجل للكفل)[1].

فكذلك اجعل من الذّنب دافعاً للطّاعة والازدياد من الحسنات ، وعاقب إبليس ، فكلّما رماك بسهم ذنب ارمه بمنجنيق طاعة ، وحقّق ما ذكره الحسن رحمه الله تعالى حيث قال: بلغنا أنّ إبليس قال : سوّلت لأمّة محمّد ε المعاصي ، فقصموا ظهري بالاستغفار .[2]

وقد بحث العلماء في حال التّائب هل يعود بعد التّوبة إلى أفضل من حاله قبلها أم لا ؟ وحقّق شيخ الإسلام أنّ من التّائبين من يعود حاله بعد التّوبة أفضل من حاله

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند ح4733 .

(2) تقدّم ص95 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

قبلها ، ومنهم العكس ومنهم من يعود لمثل حاله الأولى [1].

(1) مدارج السّالكين 1 / 320319 .

oooooooooooooooooooooooooooooooo

الرّخاء والشّدّة

يحار بعض النّاس في كيفيّة المحافظة على صلاة الفجر مثلاً ، فإنّهم يصلّون في العادة ، لكن لا يستطيعون الاستيقاظ لصلاة الفجر .

هذا مثال يسير للمسألة الّتي نحن بصددها ، وقد تأمّلت في حالي أوّلاً وفي حال من يسأل هذا السّؤال ، فوجدت الخلل منّا وفينا .

فإنّ الملاحظ في أحوالنا أنّنا لا نهتمّ كثيراً بالصّلاة الّتي نحضر أوقاتها في حال اليقظة ، فبعضنا يصلّ يها في بيته آخر الوقت ، والبعض لا يذهب إلىالمسجد إلاّ إذا خشي تسليم الإمام ، والبعض يدرك الركعة أو اثنتين من الصّلاة مع الإمام وهكذا .

oooooooooooooooooooooooooooooo

وقد تأمّلت أيضاً وصيّة النّبيّ ε لابن عبّاس في قوله : (**تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشّدّة**)[1] فوجدت فيه دلالة قويّة على ما قلت .

فإنّ الله تعالى إذا رأى من العبد الحرص على فرائض الله وقت رخائه ، أعانه عليها وقت شدّته .

فالّذي يحرص كلّ الحرص على أداء الصّلاة في وقتها مع الجماعة مدركاً تكبيرة الإحرام مع الإمام ، هذا الرّجل لا شكّ أنّ الله تعالى يحفظه في الصّلوات الّتي يكون في وقتها نائماً أومشغولاً فيذكّره إذا نسي ويعينه على الاستيقاظ لها إن كان نائماً .

وأمّا إن كان مهملاً إيّاها وقت صحوه فإنّ الله تعالى لا يعينه وقت نومه وانشغاله ، لأنّه أصلاً لم يعطها الاهتمام الّذي يستحقّ به عون الله وقت نومه وانشغاله.

---

(1) أخرجه أحمد 293/1 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

يدلّ على ما قلته أنّك ترى الفرق شاسعاً بين حال الأوّل إذا فاتته صلاة وبين الآخر .

فإنّ المؤمن المحافظ على الصّلاة وقت صحوه إذا نام عن صلاة وجد في قلبه الحزن والغمّ والهمّ الشّديد ، وأمّا الّذي لا يعيرها اهتماماً كافياً وقت صحوه فإنّه لا يرى في نومه عن صلاة أيّ أثر في نفسه ، بل يقضيها وكأنّ شيئاً لم يكن .

وعليه لا يفوتني التّنبيه ، أنّ العبد الّذي يهمل الصّلاة وقت صحوه ، ثمّ ينام عن صلاة فليس سالماً من الإثم كالّذي يعيرها الاهتمام الواجب ، لأنّ نومه عن الصّلاة بلا شكّ سببه أنّ الصّلاة لا تحتلّ المكانة الواجبة من نفسه .

oooooooooooooooooooooooooooooooo

وترى ذلك جليّاً في حياتك اليوميّة ، فإنّ الشّيء الّذي تهتمّ له ويشغل حيّزاً من تفكيرك لا تحتاج إلى منبّه يوقظك له ، بل تجدك تستيقظ دون جهد .

فلو كان للصّلاة في نفوسنا من المكانة ما للعمل والدّراسة والتّجارة ، لوجدنا من الله تعالى العون والتّسديد .

ومن مفهوم الحديث أيضاً : أنّ من عمل بما يعلم وهو في استطاعته ، أعانه الله تعالى على ما فيه على نفسه صعوبة .

وهذا في الحقيقة من فقه السّلوك ، أن يعمل العبد بما يعلم ولو كان في نظره محتقراً ، لأنّه إذا أخلص العمل به لله تعالى ، وفّقه للأعمال الصّعبة .

فمن التزم بالسّنن الرّاتبة سهّل الله عليه الوتر ، ومن التزم الوتر ولو بواحدة سهّل الله عليه قيام اللّيل .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ومن التزم صوم عاشوراء وعرفة ، سهّل الله عليه الأيّام البيض ، ومن حافظ على الأيّام البيض يسّر الله له صيام الإثنين والخميس ، وعلى هذا فقِس .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

لا تكن منبتّاً !

(المنبتُّ ، لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى)

تلك مقولته ε ، والمنبتّ هو الّذي يقطع المسافات على ظهر دابّته مرّة واحدة دون توقّف ، فإنّه في الغالب يتلف دابّته ، ولا يتمكّن من إكمال سفره بها .

وهو مثل صحيح ضربه ε لنا لنستفيد منه ، فإنّ الإنسان في هذه الدّنيا إنّما هو في سفر ورحلة شاقّة ، لا يصلح أن يقطعها في سير دائم بلا توقّف ، لأنّ ذلك سيشقّ على النّفس وربّما أتلفها .

وعليه فمن الفقه السّديد أن يجعل المؤمن لنفسه أثناء سفره محطّات ، يريح فيها راحلته ويدفع اليبوسة بالرّطوبة ، والحرارة بالبرودة ، والمرارة بالحلاوة .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وما نقرأ عنه في سير الصّالحين من دوام الحزن والخوف لا يستقيم في الحقيقة مع سيرته ε ، فلم يكن دائم البكاء والدّمع والخوف والهلع ، بل كان يخاف إذا ذكر ويضحك ويتبسّم إذا كان ثمّ ما يدعو لذلك .

وصحابته كذلك فعلوا وتلك كانت سيرتهم ، يضحكون ويمزحون وإذا تذكّروا خافوا وبكوا وندموا وتابوا .

والّذي أريد قوله أنّ الّذي مارسناه كثيراً من الإيغال في ذكر الموت واستعماله دائماً في النّصح والوعظ أمر مُحدث في رأيي ولم يكن من هديه ε وأصحابه .

oooooooooooooooooooooooooooooo

صحيح أنّه ε أمر بذكر الموت فقال : (**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها فإنّها تذكّركم الآخرة**) [1].

لكنّه لم يأمر باستدامة هذا الذّكر ، وإنّما هو دواءٌ يداوي المؤمن به نفسه ، فإنّ مقارفة الدّنيا والانهماك في طيّاتها ينسي العبد دينه ويقسّي قلبه ، فدلّنا ε على مداواة تلك القسوة بذكر الموت فحينها ينتبه الغافل ويتذكّر النّاسي ويلين القلب القاسي .

ومن هنا تعرف جهل من يستغلّ مناسبات عامّة هي من أوقات السّرور لتذكير الحاضرين بالموت وهجمته والقبر وضمّته حتّى يصيب السّامع بالكآبة .

---

(1) صحّ عن عدد من الصّحابة ، وأشهرها حديث بريدة بن الحصيب τ ، أخرجه مسلم في الجنائز باب استئذان النّبيّ ε في زيارة قبر أمّه .

وليس من السّنّة أن تقطع على نفسك أوقات المرح والسّرور سواء مع نفسك أو مع أهلك وأصدقائك بذكر الموت والبلى ، إلاّ إذا رأيت أنّ النّفس استرسلت مع الدّنيا كثيراً فحينئذ يجد الذّكر له محلاًّ .

والنّبيّ ε نفسه نهاه ربّه عن مثل هذا ، ففي صحيح ابن حبّان من حديث أبي هريرة τ قال : مرّ سول الله ε على رهط من أصحابه وهم يضحكون فقال : (**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فأتاه جبريل فقال** : **إنّ الله يقول لك** : **لم تُقنِّط عبادي ، قال** : **فرجع إليهم فقال** : **سدِّدوا وقارِبوا وأبشروا**)[1].

---

(1) الإحسان 1 / 320 ، والحديث أخرجه بهذا التّمام البخاري في الأدب المفرد باب الضّحك ص 40(ح191 / 254 : صحيح الأدب المفرد للألباني)، ورواه البخاري في صحيحه دون ذِكر القصّة ، في كتاب الرّقاق باب قول النّبيّ ε (**لو تعلمون ما أعلم**) عن

ooooooooooooooooooooooooooooooo

وابن الجوزي ذكر هذا المعنى فقال : (نرى العقل الّذي أوجب القلق(1) يأمر بما يوجب السّكون ، فقال : إنّما خُلق هذا البدن ليحمل النّفس كما تحمل النّاقة الرّاكب ، ولا بدّ من التّلطّف بالنّاقة ليحصل المقصود من السّير ، ولا يحسن في العقل دوام السّهر وطول القلق ، فلابدّ من التّلطّف بالبدن بتناول ما يصلحه، وبالقلب بما يدفع الحزن المؤذي له ، والشّرع أتى بما قاله العقل فقال : إنّ لنفسك عليك حقّاً وإنّ لزوجك عليك حقّاً فصم وأفطر وقم ونم ، ومن أراد مصداق ذلك فليتأمّل حالة الرّسول ε فإنّه كان يعدّل ما عنده من الخوف فيمازح ويسابق عائشة ويكثر من التّزوّج ويتلطّف ببدنه ،

أبي هريرة وأنس τ ما ، قال الحافظ : قد جاء لهذا الحديث سبب أخرجه سعيد في تفسيره بسند واه والطّبراني ثمّ ساق القصّة الفتح 11 /319 ، وقد بحثت عنه في معاجم الطّبراني فلم أجده .

(1) أي اضطراب النّفس بسبب الخوف .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ولولا مساكنة نوع غفلة لما صنّف العلماء ولا حُفظ العلم ولا كُتب الحديث لأنّ من يقول : ربّما متُّ اليوم ، كيف يكتب وكيف يسمع ويصنّف ؟

فلا يهولنّكم ما ترون من غفلة النّاس عن ذكر الموت حقّ ذكره فإنّها نعمة من الله سبحانه تقوم بها الدّنيا ويصلح الدّين .

وإنّما تُذمّ الغفلة الموجبة للتّفريط والإهمال للمحاسبة للنّفس وتضييع الزّمان في غير التّزوّد)[1].

وقد يقول قائل : إنّ أكثر النّاس بل طلاّب العلم في غفلة عظيمة ، وليسوا بحاجة لهذا الفصل بل هم في حاجة لمن يذكّرهم بالموت ؟

---

(1) صيد الخاطر ص147، 246 بتصرّف يسير .

oooooooooooooooooooooooooooooo

أقول : إنّ غرضي في إيراد مثل هذه الفصول ليس مجرّد كفّ الفعل ، وإنّما المراد عدم النّظر للنّفس بعين النّقص لحدّ الإجحاف بها فيقع فيها اليأس .

فإنّ من يقرأ عن بعض السّلف أنّه لم يضحك أربعين سنة ، وأنّ الآخر يبكي كلّ يوم حتّى يبلّ الثّرى ، وعن آخر أنّه لا يأكل إلاّ الخبز اليابس ، وعن آخر أنّه كلّما ذُكر له آية صعق وغير ذلك ، ربّما توهّم في نفسه أنّ من لم يكن كذلك هلك ، وأنّ تلك هي رتب الكمال الّتي يدعو إليها الشّرع ، ثمّ يقارن نفسه فيجد بوناً شاسعاً ، لأنّه لو عمل طول عمره يعرف من نفسه أنّه لايدرك ربع هذا المقدار ، مع ما يكابد من شغل الحياة وكسب المعاش ، فيرتّب على ذلك أنّه ناقص عن الواجب وعاجز عنه فيقع في التّفريط والقنوط.

لكن ليُعلم أنّ تلك الأمثلة كانت حتّى في عصورها غريبة نادرة ، مع قرب تلك العصور لعهد النّبوّة ، ولعل

ooooooooooooooooooooooooooooooo

من حكمة الله في ورودها أن يتذكّر بهم النّاسي ويعتبر الغافل والجاهل .

والأصل أن ننظر إلى حال النّبيّ ε وأصحابه وتنوّعهم وأنّ بعضهم ممّن شهد له النّبيّ ε بالجنّة لم يكن له كثير صوم أو صلاة ، غير أنّه كان سليم القلب على المسلمين ، فعن أنس بن مالك قال كنا جلوسا مع رسول الله صلى اللهم عليه وسلم فقال : (**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**)، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ،قد تعلق نعليه في يده الشمال ، فلما كان الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ،فلما كان اليوم الثالث قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً

ooooooooooooooooooooooooooooooo

، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت ، قال : نعم ، قال أنس وكان عبد الله يحدّث أنه بات معه تلك الليالي الثّلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعارّ وتقلّب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبرّ ، حتى يقوم لصلاة الفجر قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلاّ خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله قلت : يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجر ثم ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك ثلاث مرار : يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة ،فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم ، فقال : ما هو إلا ما رأيت قال فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت ،غير أني

ooooooooooooooooooooooooooooooo

لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خيرٍ أعطاه الله إياه)[1].

والآخر بلغ الجنّة بركعتين حافظ عليهما بعد كلّ وضوء ، فعن بريدة رضي الله عنه قال : أصبح رسول الله ε فدعا بلالاً ، فقال : **يا بلال بم سبقتني إلى الجنة ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي** ... فقال بلال : يا رسول الله ما أذّنت قط إلا صليت ركعتين ،وما أصابني حدثٌ قط إلا توضأت عندها ورأيت أن لله عليّ ركعتين ، فقال رسول الله ε : **بهما**)[2].

---

(1) أخرجه الإمام أحمد12286 .

(2) أخرجه الترّمذي في المناقب ح 3689 وأحمد 22531،22487 وقد أوردته مختصراً .

oooooooooooooooooooooooooooooo

بل قال ε للأعرابي الّذي قال : (والله لا أزيد ولا أنقص) يعني الفرائض فقط قال عنه : (**أفلح إن صدق**)[1] .

وهذا هو الأصل ، لا أن نجعل أمثلة من غير الصّحابة ولو كانوا من العلماء والأئمّة هم الأصل فنُصاب الإحباط ونتّهم أنفسنا فنظلمها ، فإنّ الظّلم حرام ولو كان على النّفس .

---

(1) أخرجه البخاري في الإيمان ح46 ومسلم في الإيمان ح 11 .

كن مرحليّاً

ألا ترى أنّ الرّضيع له طعام يختلف عنه إذا كبر قليلاً ، ثمّ إذا شبّ كثرت احتياجاته ، وهكذا قسّم الله عمر الإنسان إلى مراحل طفولة ثمّ مراهقة فشباب فكهولة فشيخوخة ، فكذلك اجعل لنفسك خططاً مرحليّة في تربية النّفس والسّفر بها إلى الله .

ومثال ما نحن فيه أنّ البعض يقرأ في سيرة بعض العلماء أنّه يقوم في اللّيل كذا وكذا ركعة وأنّه يختم القرآن كلّ ثلاث ، فيظن أنّ هذا الشّيخ كان هكذا دأبه منذ أن ولد إلى مات ، فيريد الشّابّ في أوّل طريقه أن يفعل مثله فيجهد نفسه بقيام لا يستطيعه وعبادات لا يطيقها .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

إنّ غالبيّة العلماء والزّهّاد وأهل العبادة ، لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلاّ بعد تدرّج ومران وترقٍّ في الرّتبة حتّى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الجلد في العبادة والصّبر عن الدّنيا وملاذّها .

وإذا كان كذلك ، فاعلم قدر نفسك وطاقاتها ، فلا بأس أن تبدأ بركعة الوتر تحافظ عليها لا تتركها أبداً .

ثمّ إذا استوثقت منها وأصبحت لنفسك كالعادة اليوميّة فزد عليها ركعتين ، فإذا قطعت بها شوطاً فزد وهكذا حتّى تصل إلى مرتبة ترضيك .

ونكتة المقال : أنّ النّفس لها حاجة إلى العبادة كما تحتاج إلى الطّعام والشّراب والنّكاح .

لكنّ هذه الحاجة يزيد شعور العبد بها وينقص بحسب طبيعة حياته ، فالعامّي لا يحتاج من العبادة ما يحتاجه العالم ، والدّاعية يزيد احتياجه على طالب العلم

oooooooooooooooooooooooooooooooo

، ولهذا أوجب الله تعالى على النّبيّ ε قيام اللّيل فقال له : { **يا أيّها المزّمّل قم اللّيل إلاّ قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً** } : [المزّمّل : 5-1] .

فالمرء لا يشعر بقيمة الشّيء إلاّ بحسب احتياجه له ، ألا ترى أنّه يشعر بقيمة الطّعام أكثر إذا جاع ، وأمّا إذا شبع فلربّما ازدرى نعمة الله .

والعبادة كذلك ، فالمؤمن كلّما اعتاد على قدر من العبادة وداوم عليه زاد إيمانه القلبي ويقينه ورجاؤه ، وإذا زادت هذه الأعمال القلبيّة أوجدت في صاحبها احتياجاً إلى العبادة ، فهي تنفيس لطاقة داخليّة ، تجبره على التّعبير فإذا كان مقدار العبادة الّتي يزاولها أقلّ منها طلبت منه المزيد فعند ذلك يندفع لها العبد بجسده ونفسه ولا يجد لذلك ألماً أو تعباً بل يجد لذّة لا توصف.

ooooooooooooooooooooooooooooooo

كالمحبّ ، لا يصبر إلاّ أن يعبّر لمحبوبه ويبدي له ما بداخله من المحبّة : فيقبّل ويعانق وينكح ويقول شعراً ويقتل نفسه أحياناً أو غيره ، وذلك بحسب قوّة المحبّة في القلب .

ومثل المسرور لا يجد بدّاً من الضّحك وربّما قفز كالمجنون إذا زاد به الفرح بل ربّما يموت .

والمحزون كذلك يبكي وربّما صرخ وربّما مات من الحزن .

كذلك محبّة الله ورجاؤه في القلب المؤمن طاقة عظيمة إذا لم تنفّس بالعبادة فلربّما انفجر قلب صاحبها ، فلا يملك إلاّ أن يبدي وينفّس عن قلبه بالطّاعة والعبادة بل ببذل النّفس والمال كذلك .

oooooooooooooooooooooooooooooo

وزيادة العبادة مرهون بزيادة ما في القلب من الإيمان ، وهذا الإيمان يزيد بوسائل متعدّدة أهمّها الصّبر في البدء على العبادة ولو قليلة .

وإذا فُهم المقام نعود إلى البدء فنقول : ابدء بالقليل ثمّ زِد وارفق بنفسك ، وستجدها بعد ذلك تندفع للعبادة وتطلب المزيد كلّ مرّة ، وهذا هو الّذي أمرك به النّبيّ ε فقال :

(**إنّ هذا الدّين متين ، فأوغلوا فيه برفق**) [1]، والسّبب ذكره ε فقال :

(**ولن يشادّ الدّين أحدٌ إلاّ غلبه**)[2].

---

(1) أخرجه الإمام أحمد ح27318 .

(2) أخرجه البخاري في الإيمان ح 39 ومقصوده أنّ الدّين يغلب من يشادّه .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

يا حبّذا هذه الوصيّة ، الإيغال برفق في الصّلاة ، في الزّكاة ، في الحج ، في الإنفاق ، في الجهاد ، في كلّ شيء أوغِل برفق حتّى تصل إلى مطلبك .

وهذه المرحليّة كما أنّها ثابتة في امتثال الأوامر فهي كذلك في اجتناب الذّنوب ، انظر مثلاً في تحريم الخمر ، هل حرّمها الله جملة واحدة ؟ الجواب : لا ، وذلك أنّها كانت راسخة في العرب رسوخاً عظيماً يلاحظ بوضوح من خلال ما يُسمّى بالأدب الجاهلي ، فلا تكاد تخلو قصيدة في ذلك العصر من التّشبّب بالخمر وذكر محاسنها وولعهم بها .

ولما جاء الإسلام لم يحرّم عليهم الخمر دفعة واحدة بل على مراحل .

وهذا لا ينافي حديث النّبيّ ع :

ooooooooooooooooooooooooooooooo

(**ما أمرتكم من أمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فانتهوا عنه**) (1) ، لأنّ جميع التّشريعات الحقيقة تخضع في تطبيقها لقاعدة المصالح والمفاسد ، ثمّ إنّ الأمر بالانتهاء مطلق ، وهو بلا شك على الفور ، غير أنّي في كلامي عن ترك المعصية بالتّدرّج لا أعني به أنّ الّذي يبقى عليها لا يأثم ، كلاّ ، وإنّما مقصودي أنّه في بعض الأحيان قد يترتّب على ترك المعصية على الفور مفسدة أعظم منها ، فلا منافاة إذن بين هذا الأمر النّبوي وبين ما قدّمناه من التّدرّج في التّربية الذّاتيّة ، بترك المحرّمات بالتدرّج حسب المصلحة والمفسدة المترتّبة على التّرك ، والله أعلم.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد ح 9577 وابن ماجة في المقدّمة ح 1 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

عوّد نفسك : لا !

مازلت أشبّه تربية النّفس بتربية الولد .

فالطّفل يمرّ في نموّه بمراحل يحتاج في كلّ مرحلة لنوع خاص من الغذاء والعلم والعاطفة .

وقد فُطر ابن آدم على التّطلّع ومدّ النّظر إلى مالا يملك ، فإذا غدا المؤمن ملبّياً لولده كلّ ما أراد أفسده بالدّلال .

وإذا حرمه من كلّ شيء عاد عليع بالتّمرّد والعصيان وعُدم نفعه .

والوسط أن يعطيه ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويمنعه عمّا من شأنه أن يدخل عليه النّقص في الدّارين .

oooooooooooooooooooooooooooooo

وقد قيل:

والنّفس كالطّفل شبّ على

حبّ الرّضاع وإن تفطمه ينفطم

كذلك الحال مع النّفس ، إن أعطيتها كلّ ما اشتهته أفسدتها بالدّلال ، وإن حرمتها من كلّ شيء عادت عليك بالرّعونة والتّمرّد والعصيان .

والوسط أن لا تحرم نفسك من حلال تتوق إليه ، وأن تحول بينها وبين ما يهلكها من حيث لا تشعر .

غير أنّ المؤمن لا بدّ أن يحتاط لنفسه حتّى فيما يحل ، فلا بدّ للعاقل أن يعوّد نفسه : لا ، فقد تطلب النّفس أحياناً من الحلال ما لا سبيل إليه إلاّ بوجه شبهة أو معصية ، فإن كانت تعوّدت في الرّخاء أن تُمنع من بعض شهوتها ، لم تجد ألماً إذا حُرمت منه أيّام الشّدّة ، أعني حين تطلب المعصية .

ooooooooooooooooooooooooooooooo

أمّا إذا كان العكس فإنّه سيجد ألماً قد لا يستطيع مقاومته وجموحاً من نفسه قد لا يستطيع مواجهته فتوقعه في ما يوجب الغضب من ربّه فيهلك .

ومن هنا حثّ السّلف على تعويد النّفس الخشونة ولو من غير حاجة تحسّباً لأيّام العسرة ، كما قال عمر الفاروق رضي الله عنه : (اخشوشنوا فإنّ النّعم لا تدوم) .

وهذا المنع من العبد لنفسه كالرّياضة لها في الوقوف عند حدود معيّنة ، ونلمح صورتها بجلاء في فرض الصّيام ، فإنّ من أعظم حكم الصّوم فيما أظن : تعويد النّفس على ترك ما يحلّ لها اصلاً ، والامتناع منه ، فهو رياضة على ترك ما تشتهيه وهو حرام .

ومثله الحج الّذي يلزم الإنسان فيه ترك التّرفّه ولو بإزالة شعرة واحدة ، وترك اللّباس الّذي يعتاده وترك محلّ

إقامته ومجاورة من قد لا يحبّ وأكل ما قد لا يعجبه ، كلّ هذا رياضة من الشّرع للنّفس أن تنتقل عن عادتها وملاذّها المباحة أصلاً ، حتّى تكتسب قوى نفسيّة على ترك الحرام في اصل الشّرع .

ومن جميل ذلك ما ذكره ابن الجوزي حيث قال عن نفسه : (قدرت على لذّة ظاهرها التّحريم ويحتمل الإباحة ، فجاهدت النّفس فقالت : أنت ما تقدر فلهذا تترك ، فقارب المقدور عليه فإذا تمكّنت تركتَ فكنت تاركاً حقيقة ، ففعلتُ وتركتُ ، ثمّ عاودت مرّة أخرى في تأويل أرتني فيه الجواز فلمّا وافقتها أثرّ ذلك ظلمة في قلبي ، فرأيت أنّها تارة تقوى عليّ بالتّرخّص والتّأويل ، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع ، فلمّا لم آمن عليها بالتّأويل تفكّرت في قطع طمعها من ذلك الأمر المؤثّر ، فلم أر ذلك إلاّ بأن قلت لها : قدّري أنّ ذلك الأمر

مباح قطعاً ، فوالله الّذي لا إله إلاّ هو لا عُدتُ إليه ، فانقطع طمعها)[1].

وقال أيضاً : (واللاّزم في هذا المقام مراعاة الواجبات وأن لا يُفسح للنّفس في مباح لا يُؤمن أنّ يتعدّى منه إعراض عن واجب ، فلأن يبكي الطّفل خير من يبكي الوالد ، واعلم أنّ فتح باب المباحات ربّما جرّ أذى كثيراً في الدّين ، فالبس الدّرع قبل الحرب ، وتلمّح عواقب ما تجني قبل تحريك اليد ، واستظهر في الحذر باجتناب ما يُخاف منه وإن لم يُتيقّن)[2].

ولهذا فالمؤمن العاقل إذا لمح هذه المعاني ألزم نفسه الاستعداد لأيّام الشّدّة ، وعوّد نفسه : **لا!**.

---

(1) صيد الخاطر ص 188 .

(2) صيد الخاطر ص189 بتصرّف .

oooooooooooooooooooooooooooooo

أخيراً : رابط في الثّغور

يدخل الشّيطان الشّرّ على النّفس من أربعة أبواب ، إذا حفظ العبد نفسه من تلك الأبواب واستوثق منها ومن ولوجها سلم من الشّرّ كلّه .

فينبغي للعبد أن يكون بوّاب نفسه على هذه الأبواب الأربعة ، ويلازم الرّباط على ثغورها ، فمنها يدخل عليه العدوّ فيجوس خلال الدّيار ويتبّر ما علا تتبيرا .

وهذه الأبواب الأربعة هي :

1 . **اللّحظات** (النّظرات) :وهي رائد الشّهوة ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج ، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد الهلكات ، ولهذا قال ε : (**لا تتبع**

oooooooooooooooooooooooooooooo

النّظرة النّظرة ، فإنّما لك الأولى وليست لك الأخرى)[1].

والنّظر أصل عامّة الحوادث الّتي تصيب الإنسان ، فالنّظرة تولّد الخطرة ، والخطرة تولّد الفكرة ، ثمّ تولّد الفكرة الشّهوة ، ثمّ تولّد الشّهوة إرادة تقوى فتصير عزيمة جازمة ، فإذا غضّ العبد بصره كفّ نفسه عمّا بعد ذلك وهو أيسر ، وفي هذا قيل : الصّبر على غضّ البصر أيسر من الصّبر على ألم ما بعده .

وقيل : حبس اللّحظات أيسر من دوام الحسرات .

ولذلك قيل :

كلّ الحوادث مبداها من النّظر

ومعظم النّار من مستصغر الشّرر.

---

(1) أخرجه أحمد 1377 وأبوداود في النّكاح ح 2149 والتّرمذي في النّكاح ح 2777 .

oooooooooooooooooooooooooooooo

2 . **الخطرات** : وهذه أصعب من الأولى ، فإنّها مبدأ الخير والشّر ، ومنها تتولّد الهمم والعزائم ، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه ، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب .

ومن استهان بالخطرات قادته قهراً إلى الهلكات .

واعلم أنّ ورود الخاطر لا يضر ، وإنّما يضرّ استدعاؤه ومحادثته ، فالخاطر كالمار على الطّريق فإن تركته مرّ وانصرف عنك ، وإن استدعيته سحرك بحديثه .

3 . **اللّفظات** : وحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة ، بأن لا يتكلّم إلاّ فيما يرجو فيه الرّبح والزّيادة في دينه ، فإذا أراد أن يتكلّم بالكلمة نظر : هل فيها ربح وفائدة أم لا ؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها .

وحفظ اللّفظات باب عظيم للخير ، كما أنّ

تضييعها باب عظيم للشّر ، فقد قال ε : (**إن العبد**

ooooooooooooooooooooooooooooooo

ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم)(1).

وقد قال ε : (**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)**(2).

4 . الخطوات : وحفظها بأن لا ينقل قدمه إلاّ فيما يرجو ثوابه ، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له ، ويمكنه أن يستخرج من كلّ مباح يخطو إليه قربة ينويها لله فتقع خطاه قربة .

وهذه الثّغور الأربعة إذا رابط فيها العبد وقاوم إبليس سلم ، فإنّ اللّعين يجهد في التّسلّل من خلالها في ساعات غفلة العبد عنها ، فيدخل إلى النّفس بصورة

---

(1) أخرجه البخاري في الرّقاق ح 6478 .

(2) أخرجه البخاري في الأدب ح6018 ومسلم في الإيمان ح47 .

oooooooooooooooooooooooooooooooo

محرّمة أو لفظة محرّمة أو خاطر شيطاني يشغل الفكر وينسيه واجباته وربّما جرّ الخطوات إلى المنكر جراً وتلك هي الطّامّة .

وماذكرناه امتثالٌ للأمر الربّاني في آخر سورة آل عمران : **{ يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتّقوا الله لعلّكم تفلحون }** [آل عمران : 200] وقد ذكره في تفسير الآية غير واحد من السّلف الصّالح رحمهم الله تعالى .